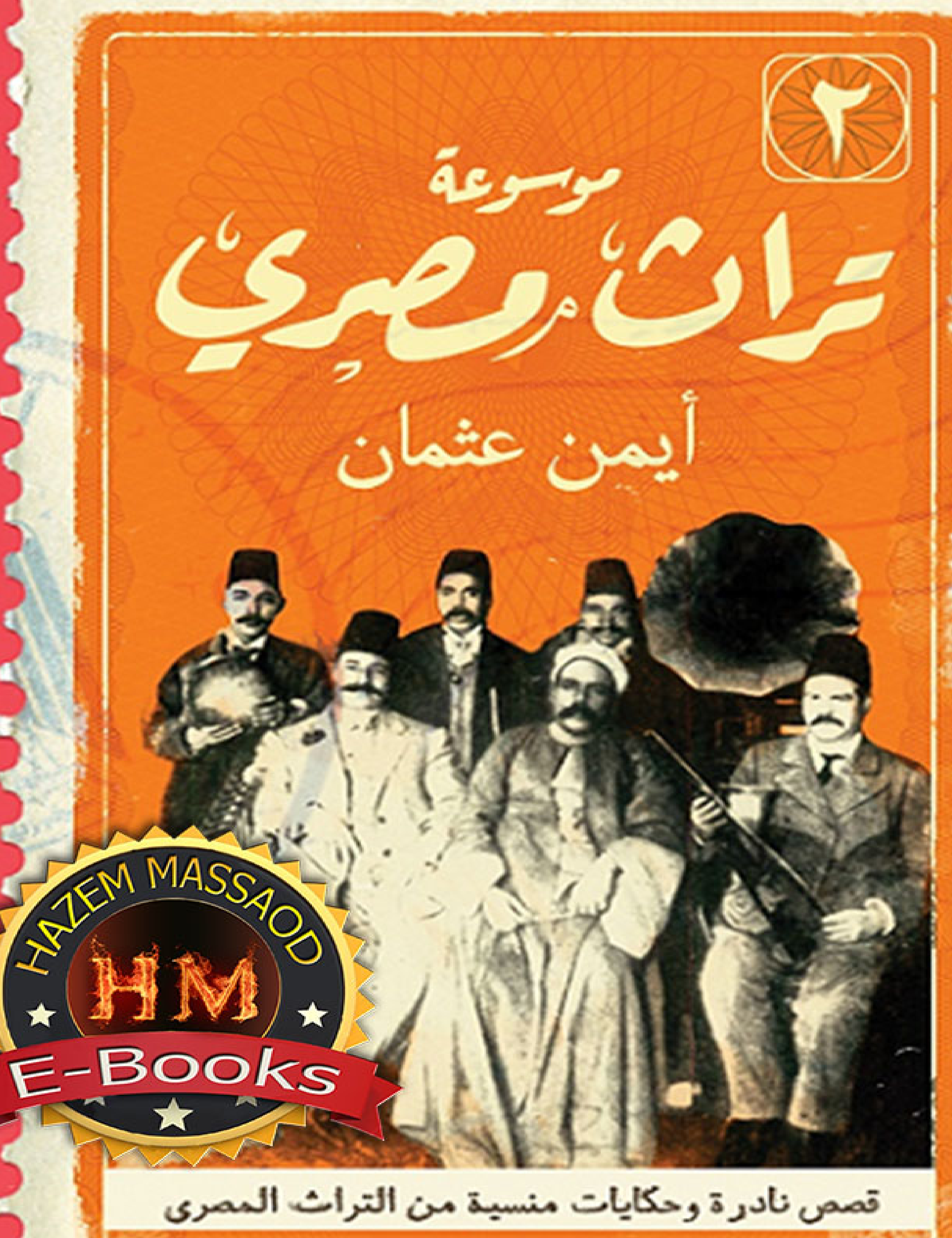

٢
موسوعة
تراث مصري
أيمن عثمان
قصص نادرة وحكايات منسية من التراث المصرى
دار دوّن

موسوعة تراث مصري (الجزء الثاني)
قصص نادرة وحكايات منسية من التراث المصري

أيمن عثمان

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود

الإهداء

إلى ميراثى من الدنيا..
أولادى "لؤى وأحمد وياسين وحمزة"
دُمتم لى أطواق نجاة.

القاهرة – المعادى
١/١١/٢٠١٧

تمهيد

الزمن قطار سريع لا يستطيع أن يقف أمامه الأشخاص والمهن والأفكار، فالأشخاص يشيخون، والمهن تنقرض، والأفكار تتبدل، ويظل التراث والحكي والذاكرة الشعبية الأدوات الوحيدة التى قاومت الزمن بالتدوين.

في التراث.. حكايات مثيرة، وصور ناطقة، وتفاصيل دقيقة.

وأشخاص مؤثرون، ودروس مجانية..

في التراث.. جنابطة، وكوبانية، وكتخدا، وآه يا للالي، وجراح باشا، وسكمونيا.

وحكايات الجدات، وحكشة، وخرابة وابور المياه، ومنادون.

وفرق الموت، وإذاعات محلية، وحلم الفلاح.

وخوازيق

عفاريت المحمل

(١)

"ولد عفريت" اختزال اتفقت عليه الأمهات ضمنيًا لوصف طفل ذكى كثير الحركة، وأحيانًا مزعج بشكل مقبول أو مؤذٍ بحسن نية.. يأتي بحركات تصعب على غيره، ويخوض في أمور يخجل آخرون أن يقتربوا منها.. المعنى دائمًا مرتبط بحالة الأم عند نطقها للجملة، فلكل حالة معنى وتوصيف مختلف، فحين يصاحبها ابتسامة.. دليل على الرضا، وحين يصاحبها ضحكة عالية.. دليل على الفخر، وحين يصاحبها لهجة زهق.. دليل على اليأس.. أما إذا نطقت الجملة بطريقة حادة، فالطفل وصل إلى حد الوقاحة.. سمعتها من أمي في كل الحالات.

هذا الاختزال، وهذا الموروث الشعبي النفسي بحالاته.. انتقل وصفًا لأرباب المساخر، وأرباب هم السادة، والمساخر لفظ عامي استخدم في العصر الأيوبي بمعنى الكوميديا.. هم سادة الكوميديا والتهريج.. رأتهن الأمهات أقرب إلى أطفالهن في اللعب وكثرة الحركة والإزعاج اللطيف والجراءة درجة المخاطرة، وفي الدهشة التى يرسمونها على الوجوه بأفعالهم الطفولية والصبيانية، فأطلقن عليهم كما يطلقن على أبنائهن "عفاريت"، واقترن ظهورهم في الشارع المصري بيوم دوران محمل كسوة الكعبة، فاختفى من أذهان العامة اللقب الأيوبي للطائفة أرباب المساخر، وأطلق عليهم لقب مصري خالص "عفاريت المحمل"..



(٢)

محاولة فهم طبيعة هذه الطائفة.. في حقيقتها معرفة البدايات الأولى لفنون المسرح والسيرك والموالد والأدباتية، فالطائفة في ألعابها وفنونها تشتمل على هذه الفنون في صورتها الأولى، ومن ثم معرفة..

كيف كان يحتفل المصريون بأعيادهم؟

وماذا يشكل مزاجهم العام؟

المؤرخون والمستشرقون للأسف خلت كتبهم من سيرة العفاريت إلا من بعض أسطر، وقليل من الحكايات إذا جمعناها معًا وضفرناها نصل لتصور ما عن هذه الطائفة التي عاشت بين المصريين

تشاركهم احتفالاتهم، وتصنع لهم من أيامهم المتميزة أعيادًا قرابة ١٠٠٠ عام.
(٣)
لكل حكاية بداية، وحكايتنا تبدأ منذ طواف المنادي معلنًا عن اليوم الذي حدده الوالي لدوران موكب محمل كسوة الكعبة، والذي غالبًا ما يكون يومًا من العشر الأواخر في شوال.. فور الإعلان عن اليوم المحدد يستعد المصريون للاحتفال بيوم الدوران بتأجير المنازل والمحلات القريبة من خط سير الموكب، وبتزيين جدران المنازل والشوارع، وبالاحتشاد من كل مكان في خط سير الرحلة منذ ليلة الموكب لوداع الكسوة، ولمسها تبركًا بها، ولمشاهدة ألعاب العفاريت نجوم الاحتفالية.
والمحمل كما وصفه كلوت بك "صندوق من الخشب توضع فيه نسختان من القرآن، ويتبعه عفش أمير الحج، وصندوق يحتوي على صرة من المال مرسل من قبل السلطان إلى الحرم النبوي، وكسوة الكعبة الشريفة المشغولة في القاهرة من الحرير الأسود".. صرة المال المرسلة من السلطان للحرم النبوي كانت مقررة على مصر كجزية بديلة عن تلك التي أعفتها الدولة العثمانية على مكة.
أما طريق دوران المحمل كما أشار إليه الجبرتي هو الطريق الرابط ما بين ميدان الرميلة –القلعة- ومسجد الحسين، حيث يجتمع الحجاج مسلمو أفريقيا وتركيا وألبانيا ومصر لبدء رحلة الحج إلى الحجاز".
مدة الرحلة هي الاحتفال الحقيقي للمصريين، وفيه يتبركون بلمس الكسوة، ويستمتعون بمشاهدة الألعاب المضحكة البسيطة في هيئتها.
بساطة المصريين في هذا اليوم يقابلها دائمًا استعراض ثروة وجاه وفخفخة من المماليك.. قال الجبرتى عن ٢٢ أغسطس ١٧٨٦ "كان خروج المحمل في صحبة أمير الحج محمد بك.. ازدحمت الناس للفرجة عليه، وكان لابسًا على هيئة العجم، وعلى رأسه تاج من ذهب مزرد، مخروط الشكل، وعليه عصابة لطيفة من حرير مرصعة بالجواهر، ولها ذوائب على آذانه وحواجبه، وعليه عباءة لطخ قصب أصفر".
(٤)
الصورة الذهنية..
المنازل والمحال التجارية تزينها الأعلام والرايات، وفي الشرفات يطل الناس في فرحة وبهجة، والأهالي على جانبي الطريق جالسون على الأرض يتسامرون، ومن بينهم يمر باعة المشروبات والسقاؤون.. الأطفال يمرحون ويلعبون، والنساء يزغردن بشكل متقطع، والرجال يصفقون.. ما إن ينكشف طرف موكب المحمل حتى يقف الجميع استعدادًا للحظة انتظروها أيامًا.. في هذه اللحظة بدأت مراسم الاحتفال..
الموكب يقترب، ويتصدره أبطال حكايتنا.
أيها السادة نحن الآن في حضرة عفاريت المحمل.
في حضرة الجعيدية وتشخيصهم المضحك الذي كان يقدم خلال العام في مقاهي باب اللوق وبولاق والأزبكية، وفي حفلات الزفاف والختان..
في حضرة البلياتشو بملابسه وألوانه المعروفة، وتفاعلاته المباشرة مع الجمهور..

في حضرة البهلوان الذي يسير على أرجل خشبية قد ترتفع إلى ثلاثة أمتار تقريبًا، ويسدل عليها معطف طويل يغطي هذه الأرجل الخشبية، ويخفي وجهه بالألوان..
في حضرة هذا التنوع الفني الذي ندر أن يتجمع معًا.. الجنابظة الذين يقومون بقفزات خطيرة على الأرض، ومحترفو المصارعة، ومدربو القردة والدببة والجمال والحمير، والأراجوز المصري، والغجر الذين يرقصون على الحبال المشدودة، والحباظية لاعبو خيال الظل الذين يحركون تماثيل بخيوط وراء ستار بيضاء، ويصاحب حركة التماثيل حكايات من التراث، والحواة الذين يوهمون المتفرجين أنهم يغرزون في جسم أحدهم نصلًا أو رمحًا من الحديد، والمبارزون من فوق الخيول، والمنشدون، والمغنيون، والحكاؤون للسير الشعبية.
كل هؤلاء أتوا للاحتفال مع الأهالي، وإمتاعهم بألعابهم، وكلما زادت المتعة والإبداع.. زاد نثر الجمهور عليهم العملات المعدنية تحية لهم وإعجابًا وحبًا، والناثرون على يقين أن الأموال المنثورة سترد إلى أصحابها أضعافًا مضاعفة ببركة المحمل والكسوة الشريفة.
(٥)
كانوا مجتهدين في ألعابهم، ومجددين لها، ومبتكرين لكل ما هو طريف وعجيب وخطير.. ذكر المؤرخ الدكتور محمد كامل حسين أن احدهم أراد أن يجدد في ألعابه، وأن يأتي بشيء أبعد ما يكون عن الفن التقليدي الذي عرفوا به، فربط طرف حبل في مآذن جامع السلطان حسن، وربط الطرف الآخر في أعلى طباق القلعة، وانتظر مرور المحمل بالقرب من القلعة، ومشى على الحبل على يديه ورجليه بين إعجاب الناس وتهليلهم حتى إذا اقترب من الميدان الذي بين القلعة والمسجد أخذ ينزل على حبل دقيق آخر كان قد ربطه في الحبل الأول، وأخذ يقوم بعرض الحركات المضحكة وهو في طريقه إلى الأرض، والناس مبهورون به وبمهارته، وصار هذا البهلوان حديث الناس لمدة طويلة.
وعن أشهر البهلوانات في منتصف القرن الخامس عشر «يزبك الجركسي» أكد ابن حجر العسقلاني أنه كان يمشي على حبل ممدود بين جامع السلطان حسن وقمة قصر الإشرافية في القلعة، وكان أثناء مشيه يرمي بالسهام من قوس صغير، فضمه السلطان إلى المماليك، وأنعم عليه برتبة «راكب حصان»..
تعالى يزبك الجركسي بلعبته على المصريين وتحداهم، فنافسه صبي ابن بلد، وأضاف على ما فعله يزبك أنه كان ينام على الحبل المشدود بين نفس المئذنتين، وكان ينزل بحبل إلى الأرض ورأسه لأسفل ثم يعود إلى أعلى بنفس الوضعية، وإذا كان «يزبك» تعلم ما تعلمه من أصول البهلوانية على يد أسرة أوروبية، فالفتى المصري علم نفسه بنفسه، واعتمد على إرادته الخاصة

كما ذكر المقريزي في كتابه «السلوك»، لكنه للأسف لم يذكر اسمه.



(٦)

كانت الهبات التي يتحصل عليها «عفاريت المحمل» من العامة سبب طمع بعض المماليك، فاتخذوا عام ١٤٦٠م في عصر السلطان «الأشرف إينال العلائي» زي عفاريت المحمل المضحكة، وقلدوهم يوم الدوران في حركاتهم وألعابهم وتمثيلهم، ولعبوا على ظهور الخيول ألعابًا مزعجة جعلت العامة ينفرون منهم، ويمتنعون عن نثر الهبات عليهم، وأطلقوا عليهم لقب «أوباش المماليك السلطانية» سخرية منهم وتقليلًا من شأنهم، ورفضوا أن يصفوهم بـ «عفاريت المحمل»..

حقد أوباش المماليك على الشعب، وانتهزوا فرصة زحام الناس في هذا اليوم، واقتحموا بيوت الأهالي، وخطفوا النساء، وهتكوا الأعراض، وسلبوا الأموال، وضربوا الأطفال، فطفح كيل الناس من فسادهم، وتمنوا أن يمر هذا اليوم ليستريحوا من أفعال عفاريت المحمل المماليك، وبعد أن كان الشعب ينتظر هذا العيد أصبح يخشاه.. ثار الأهالي على المماليك، وبادلوهم عنفًا بعنف، فاضطر السلطان إلى النزول بنفسه لتهدئه الناس، وإخماد ثورتهم، وعاقب المماليك الذين آذوا الشعب.

كتب ابن تغري في كتابه «النجوم الزاهرة في مصر والقاهرة» عن سنة ١٤٦١ يقول «وفيه أيضا نودي بزينة القاهرة لدوران المحمل، ونهى السلطان المماليك الأجلاب عن أن يعمل أحد منهم عفاريت محمل، وسببه أنهم فعلوا ذلك في السنة الخالية، وأفحشوا في الطلب من الناس، وصاروا يدخلون إلى دور الأمراء والأعيان، ويكلفونهم الكلفة الزائدة، وما كفاهم ذلك حتى صار العفريت منهم إذا مر بالشارع على فرسه بتلك الهيئة المزعجة يجبي الدكاكين، وإذا صدف رئيسًا من بياض الناس أمسكه وأخذ منه ما شاء غصبًا، وإن لم يعطه أخرق به ورماه عن فرسه، حتى صار الرجل إذا رأى واحدًا من هؤلاء أسرع في مشيه بالدخول في زقاق من الأزقة، أو بيت من البيوت، فضر ذلك بحال الناس كثيرًا، وتركوا فرجة المحمل، بل صاروا يترقبون فراغ المحمل، ليستريحوا من هذه الأنواع القبيحة.. فلما جاء أوان المحمل في هذه السنة دخل على قلوب الناس الرجيف –الخوف- بسبب ما وقع من المماليك في العام الماضي، فكلم أعيان الدولة السلطان في

إبطال المحمل، أو نهى الجلبان عن تلك الفعلة القبيحة، فلهذا رسم السلطان في هذه السنة بإبطال عفاريت المحمل بالكلية»..

(٧)

لم يستمر المنع كثيرًا، وعاد ظهور العفاريت المصريين مرة أخرى إلى الاحتفال، وعادوا إلى تصدر المشهد من جديد، واختفى أوباش المماليك بعد أن لفظهم الشعب كرها.

مع عودة العفاريت عادت الضحكة على الوجوه بفعل ملابس وألوان العفاريت وألاعيبهم وتمثيلهم وحركاتهم البهلوانية، ونثرت عليهم الهبات المالية من جديد.

(٨)

بالرغم من ارتباط اسم الطائفة بالمحمل، إلا أنهم برزوا بشكل لافت في الأعياد الأخرى كعيد رأس السنة القبطية «عيد النيروز»، وعيد كسر الخليج «وفاء النيل»، وفيه يتناول السلطان فأسًا ويضرب جدار السد الترابي في الخليج المصري فيتدفق النيل في الخليج ويفيض وسط احتفالات المصريين وألعاب العفاريت على الضفتين، وأضواء الألعاب النارية في السماء.

أثناء الاحتفال بعيد النيروز رأس السنة القبطية زمن السلطان الظاهر سيف الدين برقوق عام ١٣٨٣م.. تجمع بعض الناس واختاروا شخصًا منهم مثل كل عام ليكون أميرًا للعيد وزعيمه.. يأتمرون بأمره، ويلبون طلباته كما لو كان سلطانًا حقيقيًا، وبناء عليه.. فرضوا الضرائب والغرامات على الأعيان، وجمعوها بشكل استبدادي، وتعرضوا للرافضين بالضرب والإهانة والسب، وقذفوهم بالبيض الفاسد والماء الملوث، وتورط مع الفاعلين بعض العفاريت السكارى، وشاركوا في هذه الأحداث، فابتزوا الناس، وضربوا الممتنعين، وشربوا الخمر، فاشتكى الأهالي للسلطان من تصرفات السلطان المزعوم وحاشيته ومن أرباب المساخر، فأمر السلطان برقوق بتحريم هذا العيد..

سرعان ما تناسى الأهالي فعلتهم، وغفروا لهم حبًا فيهم «حبيبك يبلع لك الزلط»، وشاركوهم في أقرب عيد بعد عيد النيروز، وهو عيد كسر الخليج أو كما يقال «جبر الخليج».

(٩)

ما سجله «ستانلي لينبول» عن مشاهدته الخاصة لعفاريت المحمل، ودونه في كتابه «سيرة القاهرة» أثناء زيارته لها عام ١٨٣١م.. من أهم ما تركه المستشرقون عن هذه الطائفة، ولأهميتها أقتبس منها فقرات..

كتب ستانلي «ومهما يقال عنا معشر الإنجليز من أننا مكتئبون على الدوام أثناء لهونا ، فإنه حتى ذلك الجمهور الذى اعتاد أن يشاهد مسرحيات إبسن Ibsen سوف يقف مدهوشًا أمام تلك الاحتفالات الإسلامية، والمسلم في احتفالاته قلما يفكر فيما يقدمه من ألوان مختلفة».

ويقارن ستانلي بين طبيعة المصري والإنجليزي من ناحية المرح "فعلى حين لا يوحى عيد القديس سمعان والقديس يودا عليه بأي مرح للرجل الإنجليزي العابس.. تجد الرجل القاهري يتمتع بأعياده الدينية إلى أقصى الحدود بطريقته الرزينة الهادئة المعروفة، وتلك الأعياد جد كثيرة".

ويصف أعياد المصريين "والمولد في القاهرة ليس احتفالًا يستغرق يومًا واحدًا كما هو الحال في الأعياد المسيحية، وإنما يمتد في بعض الأحيان إلى تسعة أيام، وكل سائح زار القاهرة لابد أن يعرف بعض هذه الأعياد.. من ذلك الاحتفال بالكسوة الشريفة، ومرور المحمل بقافلة الحجاج.. هذه المشاهد جديرة أن يراها كل منا إذا صادف وقوعها في موسم السياحة".



ويخـبرنا عـن الألعــاب والمهرجين والأراجوز "كذلك نجد حصانًا صغيرًا يقوم ببعض الحركات، وأحد المهرجين وهو يقوم بتقليد الرياضيين في صورة تبعث على المرح وتثير الضحك في كل مكان، وفى سرادق آخر نجد قراقوش يقوم بتدبير دسائسه، والواقع أن الرجل الصغير السمين أو القراقوز المصري يؤدي عمله خيرًا مما يؤديه القراقوز الإنجليزي الذى يشبهه بعض الشبه.. غير أنه لا يحسن انتقاء كلماته، كما لا يراعي مسلكه وهو على تلك الصورة، ومن ثم نجد أنفسنا قد اضطررنا بعد قليل إلى مغادرة ذلك المكان حيث تأخذ النكات تلبس ثوب الخلاعة والمجون، وحيث تبدأ الدواب في لعبها والقيام ببعض الحركات الخاصة، غير أن الطبقات الدنيا قلما تعنى بأن تدرك ما في ذلك من ضرر، فنجد أفرادها قد أخذهم المرح حتى لتكاد جوانبهم تنفجر من كثرة الضحك على حركات قراقوش، ولعل أول ما يتميز به الجمهور المصري أنه يمكن تسليته في سهولة تامة، فإن أبسط المناظر وأقل النكات تبعث فيه المرح والسرور، ويكفي أن نجعل الأوربي المدقق بأسف على ضبط نفسه ليرى كيف أن هؤلاء البسطاء يدخل المرح قلوبهم من أقل شيء".
(١٠)

مع مرور الأيام تقلص دور "عفاريت المحمل"، واقتصر وجودهم على الموالد والمقاهي الشعبية، ومنهم من أنشأ سيركًا متجولًا، وعرض فيه ألعابه التقليدية بمصاحبة حيواناته المدربة، وبعضهم اتجه إلى المسارح لعرض فنونهم القولية والشفاهية المتوارثة، واكتفى البعض الآخر بالظهور في الشوارع ليلة رؤية هلال رمضان ومولد النبي.

وفى ظل الاحتلال الإنجليزي حل محل "العفاريت" في مقدمة موكب المحمل فرقة موسيقية من الجيش المصري، وكانت الفرقة في الأزبكية تعزف للجمهور بعض أغاني العصر، وكأنها ورثت الدور التاريخي للعفاريت في الاحتفالات وفى الميادين، وهو ما أثار استياء الكاتب الكبير "فكري أباظة"، فكتب في مجلة المصور ٢٥ أغسطس ١٩٢٥ "الجيش في كل البلاد هو رمز الكرامة القومية، والعزة الوطنية، والمجد القديم والحديث، وبالتالي كيف كان ينتظر من موسيقات الجيش أن تكون أداة لاستثارة العزة والحماس والدعوة باللحن والأغنية إلى الاستنفار والكرامة.. لكنه يستمع إلى فرقة موسيقى الجيش في تلك الأيام فإذا به لا يجدها تعزف أو تغني أي لحن أو أغنية وطنية أو حتى فيها نخوة الرجال، وإنما هي تعزف وتغني الألحان المائعة مثل "العفو يا سيد الملاح دا أنا بحبك" و "يا طير يا اللي ع الشجر" و "يا دلع يا دلع" و "كادني الهوى" و "توبي يا حلوة توبي"، وتغير الحال بعد اتفاقية ١٩٣٦.. عادت فرقة الجيش الموسيقية إلى ثكناتها، وتطور أرباب المساخر، وأصبحوا رواد فنون المسرح والسيرك والموالد والأدباتية في مصر.

السقا مات

(١)

عاش المعلم شوشة السقا، ولم يمت في نهاية فيلم "السقا مات" الذي جرت أحداثه في زمن عشرينات القرن الماضي، ولكن مهنته لفظت أنفاسها الأخيرة أواخر الأربعينيات بفعل الكوليرا..

الحكاية من بدايتها.. سقاؤون ابتكروا "الديلفري"، وكانوا أول من طرقوا الأبواب لتسليم سلعتهم بدون مصاريف شحن، والسعر ثابت أينما كنت.. كانوا بالآلاف.. يتجمعون بعد صلاة الفجر على طول شاطئ الخليج المصري، وهو مجرى مائي كان يمتد قبل ردمه من "فُم الخليج" إلى "ترعة الإسماعيلية" مرورًا بالسيدة زينب وباب الخلق والزاوية الحمراء.. يسعون إلى رزق يعتمد على خدمة الأهالي في توصيل المياه النظيفة إلى بيوتهم ومدارسهم ومحالهم التجارية ومساجدهم وكنائسهم والأسبلة العامة.

(٢)

قديمًا كان لكل طائفة أدبياتها وشروطها الخاصة في العاملين بها، وطائفة السقائين كانت من الطوائف صاحبة الخصوصية، فالسقا شخص يتعامل مباشرة مع السيدات، وهو أمر كان وما زال عند المصري له حساسيته..

لذلك فشروط الانتساب لهذه الطائفة كانت تدور في فلك التدين والأمانة.. متدينًا لمراعاة حرمة المنزل الذي يدخله، وأمينًا ومخلصًا في عمله، فلا يستخدم قربة مصبوغة فتفسد الماء، ولا مثقوبة فتقل الحصة المتفق عليها، وكان لزامًا عليه أن يبذل مجهودًا مضاعفًا للوصول إلى تواجد المياه النظيفة بعيدًا عن المياه الراكدة والملوثة بالمخلفات البشرية وجيف الحيوانات، وكان عليه أن يطهر الماء بمادة الشبة، ويعطره بماء الورد وعيدان النعناع لزوم دلع الزبون.



أن تكون سقا.. عليك أن تخضع لاختبارات وكشف طبي وكشف هيئة، أن تختبر في التحمل، وأن يشهد لك الناس بحسن السير والسلوك إن لم يكن والدك سقا قديمًا فيشفع لك للانضمام، فالطائفة كغيرها من الطوائف والمهن والوظائف والمناصب.. محجوزة لأبناء العاملين.. فابن السقا سقا، وابن الباشا باشا.
وبالنسبة لاختبار التحمل لغير أبناء العاملين، فله شكل محدد وتقليدي.. يحمل المتقدم على كتفه قربة مملوءة بالرمل تزن ثلاثين كيلو جرامًا لمدة ثلاثة أيام دون أن يتكئ على حائط أو يجلس على كرسي.. بعد النجاح في الاختبار يخضع المتقدم للكشف الطبي لإثبات خلوه من الأمراض الجلدية والمعدية، ويمنح "رخصة سقا" مدون فيها اسمه ومحل سكنه، وسنه، ومحل ميلاده وجنسيته، وهي رخصة شبيهة برخص باقي الطوائف وبرخصة تحرير العبيد وبرخصة محل العاهرات، ولكن يميز رخصة السقا وجود رسم كارياتيري لسقا يحمل قربة، وجملة "تسيير واعتماد سقا".. بعدها يباشر عمله الرئيسي بتوريد المياه للمحتاجين إليها في المنازل والمحلات التجارية.
(٣)
في ثلاثينيات القرن التاسع عشر تقاضى السقا ثمنًا لسعة القربة الواحدة ١٠ فضة مضروبة في عدد مرات توريد القرب بعد أن يحسب مجموع العلامات التي كان يرسمها خلف باب المنزل في كل مرة توريد، وفي المواسم والأعياد الدينية مثل شهر رمضان والموالد والأفراح وحفلات الختان.. الرزق واسع.



وبجانب توريد المياه كان عليه أن يكون متأهبًا وقت اللزوم للعمل كرجل إطفاء، فإذا كان في فترة عمله عليه ترك ما بيده، والذهاب بقربته المملوءة إلى مكان الحريق للمساعدة في إطفائها، وفي أوقات فراغه وجب عليه رش الأسواق والشوارع الترابية وأمام المحلات التجارية، وتوزيع المياه على السائرين العطشى مجانًا.

(٤)

بعد ما يزيد على ١٠٠٠ عام من خدمة طائفة السقائين للمصريين سطر الخديوي إسماعيل بداية النهاية للطائفة عندما أمر بردم الخليج المصري، ومنح امتياز ضخ المياه للمنازل لشركة "كوردييه"، والتي عرفها المصريون باسم "كوبانية الميه"، ولم تكن أنابيب المياه قد امتدت إلا في منازل الأثرياء الذين يستطيعون دفع النفقات الباهظة التي كانت تفرضها شركات المياه الخاصة

على طالبي المياه النظيفة، ولكن شركة "كوردييه" كانت تريد مزيدًا من المكاسب الطائلة، ولذلك عممت حنفيات المياه الكبيرة والعمومية في الأحياء التي يصعب على سكانها جلب المياه من الترع أو الخليج..
تم المخطط كما أرادت الشركة، وأقبل الأهالي على شراء المياه بالثمن الذي فرضته، وهو مليم واحد ثمنًا لكل صفيحة، وستين خردة "مليم ونصف" ثمنًا لكل قربة.. في البداية استعان فئة من السقائين بهذه المحطات، وكانوا يعتمدون في كسب رزقهم على جلب المياه منها، فقد وجدوا أن الحنفيات العمومية تختصر عليهم طريقًا كانوا يقطعونه عشرات المرات يوميًا لإحضار المياه من النيل أو الخليج، فأقبلوا على هذه المحطات يشترون منها المياه المكررة النظيفة ليوصلوها إلى المنازل، وكانت هناك محطة كبيرة لتكرير هذه المياه، ومكانها في نفس المكان الذى شيدوا فيه دار القضاء العالي بشارع رمسيس.



(٥)
تعامل السقاؤون مع بائع المياه الجالس في كشك المحطة بطريقة دفع ثمن القربة بالمارك، وحددوا فيما بينهم "ماركة" على كل صفيحة يصرفها البائع.. على أن يستردوا هذه الماركات في آخر اليوم ثم يحصوا عددها، ويدفعوا ثمن الماركات المستردة، وهى طريقة استخدمتها بعد ذلك محلات العصائر، والمقاهي الشعبية.. لاحظت بعض الأسر هذه الطريقة المتبعة بين السقا والجالس في الكشك، فبدأوا يقلدون هذه الطريقة بينهم وبين السقا، واختفت طريقة رسم علامات بالطباشير خلف أبواب المنازل.

روى عن عامل الحنفية الجالس في كشك المياه، والمسيطر على عملية البيع أنه ينطبق عليه مثل ذلك التركي "الأنزوح" الذى وضع أمامه عددًا من "القلل" المملوءة بالماء، وكلما أقبل عليه شارب أمره بأن يشرب من "قلة" معينة لكي يشعر نفسه والآخرون بأنه سيد مطاع، فاختلفت أخلاقيات المهنة والطائفة.. السقا الذى كان ينتمي إلى الطائفة يقدم في خدمته السيدة الحامل والمسنة عن غيرهما، وعامل الكشك يقدم سيدة على سيدة أخرى وسقاء شخص قبل شخص آخر على حسب المزاج.. السقا كان يراعى حرمة النساء ودائم النظر في الأرض إذا تعامل معهن، وعامل الكشك الذى ينتمي إلى الكوبانية كان قاضي غرام لكثرة حكيه مع النسوة.. السقا كان يقدر ظروف زبائنه الاقتصادية، وعامل الكشك كان يساعد الشركة في استنزاف الأهالي لهذا كانت أجرته اليومية من الكوبانية ١٦ قرشًا وهو مبلغ كبير في تلك الفترة.

(٦)

في مطلع أربعينيات القرن الماضي فكرت وزارة الصحة أن تضع يدها على هذه الحنفيات العمومية لتقديم المياه مجانًا للفقراء بعد أن استنزفتهم الشركة بأسعارها، ولكن الشركة الأجنبية رفضت، واحتمت بالامتيازات الأجنبية، فاشترت الوزارة من الشركة ١٤٠ حنفية عمومية من أصل ٣٠٠ حنفية مملوكة للشركة وموزعة في جميع أنحاء القاهرة.. تركت الوزارة ٢١ منها يستغلها السقاؤون ليتعايشوا منها، ووهبت البقية للأهالي مجانًا، وعندما ضرب وباء الكوليرا ضربته الشديدة في أرجاء القاهرة عام ١٩٤٧ قررت الوزارة شراء باقي الحنفيات من الشركة الأجنبية، واستردت الحنفيات التي يستفيد منها السقاؤون لتعميم المياه النقية في جميع الأحياء إنقاذًا لسكانها من الوباء الأصفر، فحاول السقاؤون أن يحتجوا ويتظاهروا ويعتصموا بشكل فئوي، ولكن الوزارة لم تسمع لهم، وأخضعت كل الحنفيات العمومية للكشف الصحي الدوري،

واختفى السقا نهائيًا من الشارع المصري، وماتت مهنته، وحفظها التراث بحكاياته وصوره.

(٧)

اطلعت على قصاصة ورق لمجلة قديمة، وعرفت من أحد الإعلانات المنشورة أنها تعود لثلاثينيات القرن الماضي، وجدت في الورقة ثلاث صور شخصية بينها اختلاف كبير في التفاصيل والملامح، والمجلة تسأل قراءها: أي صورة أصدق لمحمد على باشا الكبير؟

وكُتب في المجلة "كيف كان وجه محمد على باشا رأس الأسرة الملكية، وباني مصر الحديثة؟ لاشك أنه كانت له ملامح تتجلى فيها العظمة تنبئ عما بنفسه من العزيمة التي لا يقف في سبيلها عائق.. غير أن الصور التي رسمها الرسامون المعاصرون له والتماثيل التي خلد بها المثالون شكله، كما خلدت أعماله اسمه.. قد اختلفت فيها ملامحه، وتباينت سحنته حتى أن الناظر إليها لا يكاد يحسب أنها لشخص واحد"..

لم يكن لمحمد على صورة فوتوغرافية واحدة..

عندما شاهد أول صورة أخذت في مصر، وكانت لواجهة مبنى حرملك قصر الإسكندرية قال "هذا من عمل الشيطان"، ورفض تصويره خوفًا من شيطان الصور.. بعد ريبورتاج المجلة تنبهت الأسرة الملكية لهذه الإشكالية، فاعتمدت صورًا لمحمد على سبق ورُسمت في عهد الخديوي إسماعيل، وبينها تشابه كبير، وفيها قربت تفاصيل وملامح محمد على باشا من ملامح "إسماعيل" لتنفي ما روج له فرع حليم في الأسرة "أن إبراهيم باشا ليس ابنا لمحمد علي.. بل هو ابن

زوجته"، وبالتالي لا يحق لإسماعيل حكم مصر لأنه يعارض اتفاقية كوتاهية، وعن هذا قال نوبار "قنصل فرنسا في مصر وراء هذه الشائعة"..
لا أعلم.. كيف تكون شائعة وتفاوض إسماعيل وحليم على حكم مصر؟؟
المهم..
لم يكن لمحمد على صورة فوتوغرافية، ولم يكن لمعاصريه ووزرائه وحاشيته صورًا فوتوغرافية.. هي مشكلة لم يعانوا منها إلا عندما صدر فرمان من الخديوي إسماعيل عام ١٨٧٢ بإقامة تماثيل لرجال محمد على، ومنهم رئيس وزرائه ومهندس مذبحة القلعة "لاظ أوغلي".. الفرمان سيف على رقاب العباد والمسئولين، وأوامر الحكام مقدسة مهما كانت الصعوبات..
خوف الحكومة من مخالفة أمر الخديوي، وفقدان ثقته.. ألجأهم إلى فن "الفهلوة"، فكلفوا اثنين من الباشوات بحل هذه الإشكالية، وهما ثابت باشا ودرملي باشا، والاثنان عاصرا لاظ أوغلي في طفولتهما، وبعد مناقشات ومداولات، وتفكير متبادل.. فشلوا في إيجاد حلول تخرجهما من هذا المأزق..
في هذه الأثناء شاهد ثابت باشا «سقا» يقوم برش الأرض أمام المقهى الذي يجلسان عليه، فأشار على السقا للدرملي، وقال له: هذا السقا يشبه لاظ أوغلي.. في البداية اعترض الدرملي على ملحوظة ثابت، وعارضه في هذا، وحدث جدال طويل بينهما.. انتهى بأن السقا يشبه لاظ أوغلي، والأمر لله.
في اليوم التالي زار ثابت والدرملي ومعهما السقا المثال «جاك مار»، وطلبوا منه عمل تمثال لاظ أوغلي بنفس هيئة السقا بعد أن ألبسوه ملابس لاظ أوغلي، وقد كان ..
ومنذ ١٨٧٢ وليومنا هذا، وفى الميدان المشهور باسمه.. يوجد تمثال شاهد على جريمة تزوير في ملامح رسمية.. جريمة كشفها أمين باشا سامي في «تقويم النيل، وعبد المنعم شميس في «حرافيش القاهرة».. جريمة تمثال يحيا معنا في حياتنا اليومية، ويشهد بكذب مقولة.. السقا مات.

كتخدا السناري

(١)

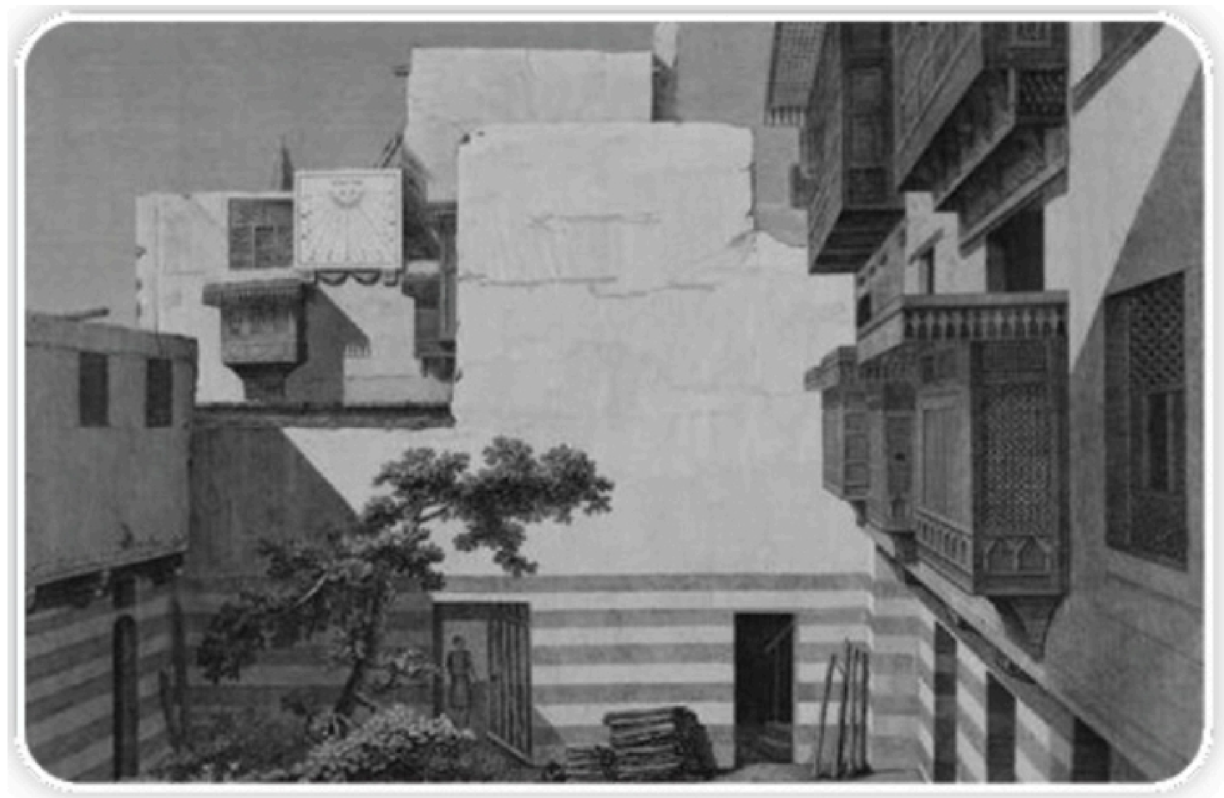
البيت عنوان صاحبه، وله نصيب منه كما الأسماء في الروح والشخصية والذوق، وتفاصيله في الأصل تفاصيل شخصيته، ومفتاح طبيعته.. زيارتك لبيت في حقيقته زيارة لروح صاحبه وفكره، ومن البديهي عندما تزور شخصًا ما في مسكنه تصل إلى حد أدنى من المعرفة بطبيعة هذا الشخص.. من شكل الباب الخارجي، واللوحات على الجدران، وطبيعة الممرات، وتناسق الأثاث، وتداخل الألوان، ورائحة الغرف، والروح السائدة.. مرحها من مرحه، وكآبتها من كآبته.

يمكن أن تختبر الأمر، باستدعاء صور ذهنية لتفاصيل بيت، والبحث عن أوجه التشابه بينه وبين مالكه.. ثم اترك الكتاب لثلاث دقائق، واغمض عينيك، وشاهد الصور الذهنية، وفكر.

نبدأ الحكاية عندما تنتهي من تجربتك الخاصة.

(٢)

بيت السناري.. بيت عتيق في حارة منج بالناصرية حي السيدة زينب، وعلى بعد خطوات ليست بالكثيرة من مقام السيدة .. بناه إبراهيم بك السناري في عهد الوالي مراد بك قبل الحملة الفرنسية على مصر، وكان يشغل منصب وكيل الوالي ووزيره ولقبه كتخدا، ورتبته العسكرية صنجق أي لواء، ولمكانته كان يدق له الطبل والموسيقى إعلانًا بقدومه..



زرت البيت مرة واحدة منذ سنوات لحضور فاعليات أمسية شعرية أقيمت في إحدى الغرف العلوية للبيت، وجلست في ساحته، وتجولت في ممراته، وتفحصت نوافذه العديدة المشغولة بالأرابيسك.. أبوابه أحسستها كئيبة، ونوافذه شاهدتها أقرب لأبراج مراقبة تتيح لمن خلفها متابعتى

خلسة، وممراته تغتال البراح الذي أنشده في الأماكن الأثرية، وسُلمه المنخفض والضيق يثير في النفس القلق والتوتر..

أثناء زيارتي للبيت حدثت مفارقة طريفة، ومن طرفتها ارتسمت على ملامح وجهي ابتسامة.. حين قام أحد الشعراء في الأمسية، وأنشد شعرًا لـ أمير شعراء العامية بيرم التونسي، وكأنه يصف السناري نفسه في عقر داره..

ياما عجايب وغرايب ولا مصايب
وردت على مصر
الهمشري والأناضولي والمنغولي
احدف على مصر
وجيوش من الانكشارية والدلاتية
واشحن على مصر
عبيد وكانوا خدامها بقوا حكامها
واحتملي يا مصر

(٣)

ما بين بلدته دنقلة إلى القاهرة عام في ١٧٨٠.. مسافة قطعها إبراهيم السناري، وكل مناه أن يجد عملًا يتعايش عليه بعد أن ضاقت به بلدته، واعتصرت حقه الإنساني في الحياة الكريمة.. لفظته القاهرة في أول الأمر، ولم تحن عليه وتعطيه الفرصة، فأرسله أحد أصدقائه إلى المنصورة، وهناك دخل في خدمة أحد المماليك الأقوياء في ذلك العهد، وأصبح «بوابا»، وهى وظيفة كان يطمح إليها القادمون من دنقلة أمثال السناري، وينظرون إليها بعين الرضا والارتياح..



مملوك

الجنوبيون مشهورون بالأمانة والإخلاص، والسناري جنوبي هذه الخصال في شخصيته وفطرته قبل أن تفسده حياة المدينة، واختلاطه بالمماليك حيث جو الدسائس والمؤامرات والمكائد والطمع..
سرعان ما تعلم السناري لغات العصر الذى يعيشه، فأصبح يجيد لغات التدليس والنفاق والكذب، وبرع في التحدث بها، فاغتر بنفسه، وسعى بكل ما أوتي من ذكاء ودهاء.. مستثمرًا كل ما تعلمه في التقرب من المماليك كالشابوري بك ومصطفى بك، فوثقوا به، ورفعوا من شأنه الاجتماعي، وتحول السناري مع الأيام إلى مملوك طبعًا وطموحًا، ودخل في خدمة مصطفى بك، وأصبح كاتبه الخاص، وعاش في نعيم المماليك..
أضاف السناري اللغة التركية إلى ما تعلمه، لغة المراسلات الرسمية، وعلية القوم، فخالط بها الأكابر من أولي الأمر الأتراك والمماليك.. زادت ثقة مصطفى بك به، ووكل إليه مهمة التشهير بـوالي مصر مراد بك.. حتى تخلو له السيطرة على المماليك وحكم مصر، وحدث ما لم ينتظره السناري..
كشف مراد بك أمر تشهيره به، وتعجب من أن يكون لهذا الدنقلاوي شأن بين المماليك، فنظرة المماليك لأهل الجنوب لا تختلف عن نظرتهم للمصريين.. فيها من الاحتكار والتعالي ما يجعلك تدهش من فعلة العبيد.
أمر مراد بإحضاره حيا أو ميتا، وكعادة المماليك في وقت الأزمات.. تخلى عنه مصطفى بك خوفا من بطش مراد وجنوده، ففر إبراهيم السناري بحياته حفاظًا على رقبته، واختفى عن الأنظار.. بعد أن هدأت الأمور توسط لدى حسين بك ليعقد صلحًا مع مراد بك، ويحصل على عفو.. مقابل أن يكون لمراد خادمًا مخلصًا كما كان لغيره، ومستخدمًا لكل إمكانياته لتصب في مصلحته، ووافق مراد على طلب الصلح، وقربه منه، وأعجب بفكره وشخصيته.
(٤)
ساعد أفول نجم مراد بك باختياره الشخصي على لمعان نجم السناري في المشهد السياسي.. حيث اكتفى مراد بك بالسعي وراء ملذاته الخاصة، وتبذير الأموال، والتنقل بين قصوره..
كتب الجبرتي «وعكف مراد بك على لذاته وشهواته، وقضى أكثر زمانه خارج المدينة، مرة بقصره الذى أنشأه بالروضة، وأخرى بجزيرة الذهب، وأخرى بقصر قليماز - جهة العادلية- كل ذلك مع مشاركته لإبراهيم بك في الأحكام والنقض والإبرام، والإيراد والإصدار ومقاسمة الأموال والدواوين، وتقليد مماليكه وأتباعه الولايات والمناصب، وأخذ في بذل الأموال وإنفاقها على أمرائه وأتباعه، فانضم إليه بعض أمراء على بك وغيرهم، فأكرمهم ورخص لمماليكه في هفواتهم».. مع الوقت اعتزل مراد بك العامة والخشداش «الزملاء»، وأقام في قصره بالجيزة، وترك لشريكه في الحكم إبراهيم بك أمر الأحكام والدواوين، وكان سفيره بينه وبين كبار الأمراء إبراهيم كتخدا السناري، وكان السناري بديلًا عنه، والسرد ما زال للجبرتي «استوزر رجلًا بربريًا، وهو المسمى بإبراهيم كتخدا السناري، وجعله كتخداه ومشيره، وبلغ من العظمة ونفوذ الكلمة بإقليم مصر ما لم يبلغه أعظم أمير بها، وبنى له دارًا بالناصرية، واقتنى المماليك الحسان والسراري البيض والحبوش والخدم، وتعلم التركية والأوضاع الشيطانية، واختص ذلك السناري ببعض رعاع الناس، وجعله كتخداه.. يأتمر بأمره، ويتوسل به أعاظم الناس في قضاء أشغالهم»..

هكذا ابتسمت الأيام للسناري البواب، ولعب الزهر، فتسيد على المصريين والمماليك، وحكم مصر من الباطن وكيلًا لسيده مراد بك.. أصدر الأحكام، وحل مشكلات سيده، وناصره ضد غريمه التقليدي إبراهيم بك المملوك، وأتمرت جيوش المماليك بأمره..

خلال هذه الفترة كان عين أعيان مصر.. عاش في ثراء فاحش، وامتلك القصور والجواري، وكانت سيرته، وسيرة المماليك في هذا الوقت لا تأتي بين العامة إلا مصحوبة بأشعار ابن عروس، والتي جرت على ألسنة الناس كما تجري الحكم والأمثال..

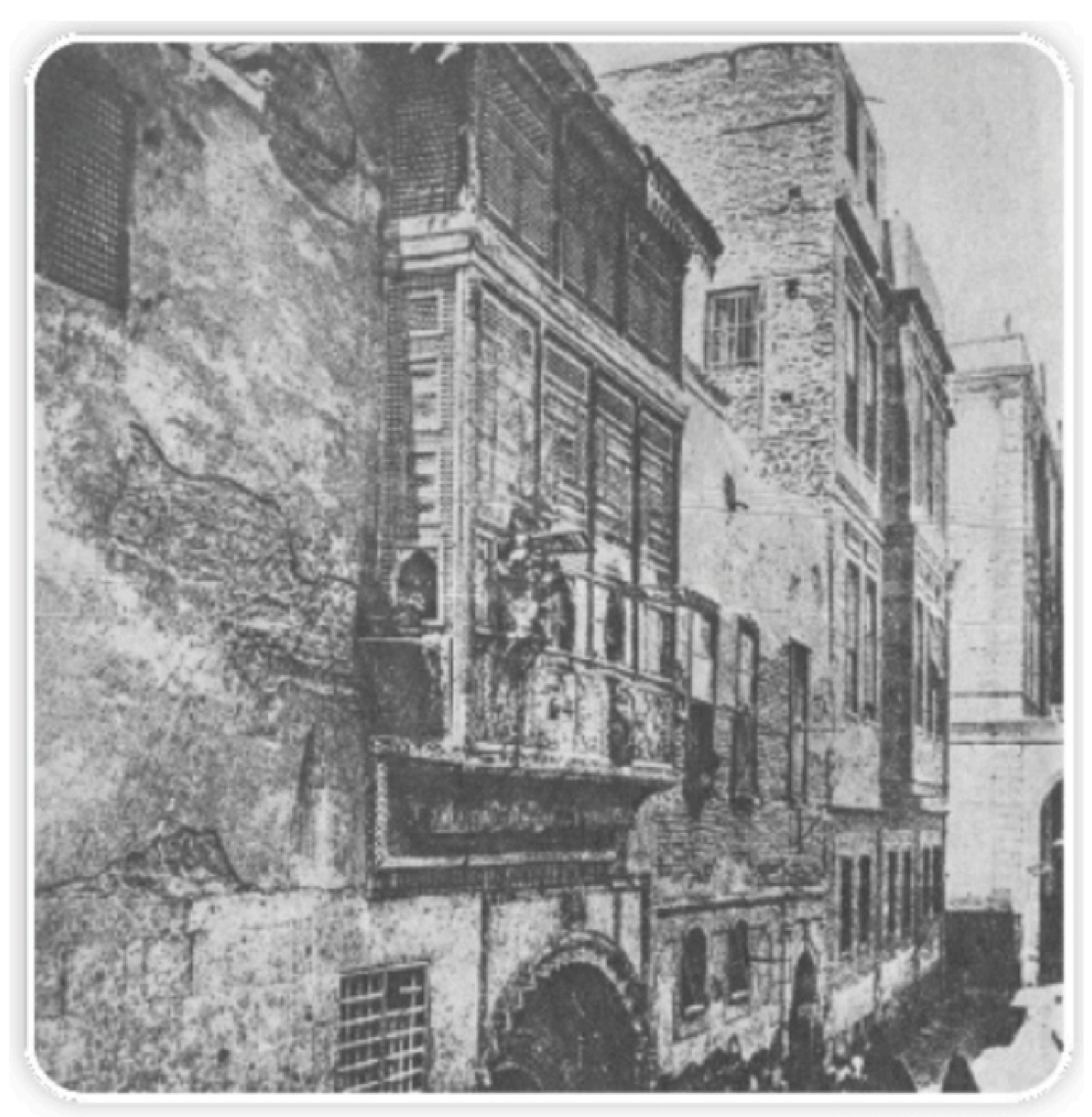
لابد من يـوم معلوم .. ترتد فيه المظالم

أبيض على كل مظلوم.. أسود على كل ظالم.

(٥)

«فخر الأماثل وكمال الأعيان العظام عين أعيان ذو القدر أولي الشأن الفخام الجناب المكرم والمخدوم المفخم الأمير إبراهيم كتخدا المعروف نسبه الكريم بالسناري كتخدا افتخار الأمراء العظام كبير الكبرا أولي الشأن الفخام صاحب العز والقدر والمجد والاحترام المقر الكريم العالي حايز أنواع كمالات المفاخر والمعالي أمير اللوى الشريف السلطاني والعلم المنيف الخاقاني مولانا الأمير مراد بك محمد أمير الحاج الشريف المصري سابقًا دامت عزته وأبدت سيادته وأعز جناب الواقف المشار إليه أعلاه آمين»..

بهذه الألقاب والمكانة، وهذا التفخيم والنفوذ، وهذا القدر.. وصفوا السناري في وثيقة وقف بيته، والوثيقة محفوظة في أرشيف وزارة الأوقاف.



بيت السناري ١٩٣٢

(٦)

بقدوم الفرنسيين عام ١٧٩٨ طويت صفحة المماليك من تاريخ مصر، وبدأت رحلة مصرية جديدة مع محتل جديد، والرحلة بدايتها محاولة إعادة الروح لجسد المماليك الميت بقبلة حياة لم يستجب لها الجسد.. هرب إبراهيم بك إلى سوريا مع بقايا مماليكه، وقاتل مراد بك بمفرده، وكانت هزيمته قاسية في شبراخيت وإمبابة يوليو ١٧٩٨.



مراد بك

قال الجبرتي واصفًا مراد بك «كان على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة على ما فيه من الادعاء والغرور، والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور.. كما قال القائل أسد علي وفي الحروب نعامة»، وبهزيمة مراد وهروبه إلى وجه قبلي.. هرب إبراهيم بك كتخدا هو الآخر، وكأن الهروب هوايته المفضلة منذ هروبه من مراد في السابق، وظل يتنقل من مخبأ لمخبأ، ومن ملجأ لملجأ، وهو يمتلك الخبرة لهذا الفعل.. في انتظار جلاء الفرنسيين من أنفسهم أو انتصار المصريين عليهم.. تشرب حتى النخاع من سيده.

(٧)

سيطر الفرنسيون على بيت السناري، وخصصوه لجماعة من علمائهم، ومنهم «أريجو» المصور، وكان أريجو هذا بارعًا في الرسم، ويخيل لمن يشاهد رسوماته أنها تكاد تنطق.. شارك الرسام البيت أعضاء لجان الفنون والعلوم والطبيعة والرياضيات والاقتصاد السياسي برئاسة جاسبار مونج، وأصبح المبنى مجمعًا علميًا للحملة، وأطلق على حارة البيت اسم «حارة مونج» والتي

حرفت إلى «حارة منج»، وفى عام ١٩١٦ استأجره العالم الفرنسي شارل جلياردو بك، وقد جعل جناحًا منه متحفًا، جمع فيه ما وصلت إليه يداه من الآثار والمؤلفات والمخطوطات التي تتعلق بسنوات الحملة الفرنسية على مصر، وأطلق على بيت السناري اسم «متحف بونابرت».

(٨)

نهاية السناري.. بعد انسحاب الفرنسيين من مصر.. خلت البلاد من إدارة رسمية تتولى شئونها، وبدا في الأفق صراع بين جبهتي المماليك والعثمانيين على حكم مصر.. جبهة المماليك متمثلة في محمد بك الألفي وعثمان بك البرديسي، ويدعمهما عدد من أعيان المماليك على رأسهم إبراهيم كتخدا السناري وعثمان بك المرادي، وجبهة العثمانيين يمثلها يوسف باشا الصدر الأعظم، وخسرو باشا وحسين باشا قبودان قائد الأسطول العثماني في أبي قير.

سيطرت جبهة المماليك على صعيد مصر، وسيطرت جبهة العثمانيين على القاهرة والإسكندرية، وللسيطرة على البلاد كاملة سعى يوسف باشا إلى الحصول على فرمان عثماني بتولي خسرو باشا حكم مصر، وأن يكون واليًا عثمانيًا عليها، وحصل له ما أراد، ووصل الفرمان العثماني الذى يولى خسرو الحكم، والمماليك كانوا ومازالوا العقبة الوحيدة على انفراد العثمانيين بالحكم، فخطط ودبر ونفذ يوسف باشا بمساعدة خسرو باشا وحسين باشا مذبحة المماليك الأولى – قبل مذبحة القلعة- والتي كانت تهدف إلى إبادة البقية الباقية من أعيان المماليك في مصر.

حكى جورجي زيدان في كتابه «مصر الحديثة» عن المذبحة أن.. القائدين العثمانيين دبرا مكيدة تنهي على من بقي من المماليك فبعث قبطان باشا إلى بعض أمراء المماليك يدعوهم إلى وليمة قال إنه أعدها في معسكره بأبي قير، وأن غرضه من ذلك الاجتماع المفاوضة معهم على كيفية إصلاح شئون البلاد، وإشراكهم فيه، ولما وصل المماليك الضيوف إلى أبي قير.. رحب بهم حسين باشا ودعاهم إلى النزول معه في قاربه الخاص، ليذهبوا جميعًا إلى الجنرال الإنجليزي على إحدى السفن للمفاوضة معه في بعض الشئون، فركبوا حتى صاروا على مسافة بعيدة من الشاطئ، فالتقوا بقارب آت من جهة السفن.. قال من في القارب أن لديه مراسلات باسم القبطان باشا، وفجأة قفز القبطان حسين باشا من قاربه الخاص إلى القارب الآخر، وأمر قائده أن يسير بسرعة، وبقي المماليك وحدهم في قارب القبضان، فأحسوا بالقلق وخافوا، ثم سمعوا إطلاق المدافع عليهم من قارب العثمانيين، فتأكدوا أنها مكيدة وحاولوا الرجوع إلى الشاطئ، ولكن قتل منهم كثيرون بينهم عثمان بك المرادي الكبير، وعثمان بك الأشقر، ومراد بك الصغير، وعلى بك الأيوبي، ومحمد بك الحسيني، وإبراهيم بك كتخدا السناري»..

ولهذه المذبحة رواية أخرى عند الجبرتي، تفاصيلها مختلفة «وفيه-٢٨ أكتوبر ١٨٠١- وردت الأخبار بأن حسين باشا القبطان لم يزل يتحايل وينصب الفخاخ للأمراء الذين عنده، وهم محترزون منه، وخائفون من الوقوع بحباله، فكانوا لا يأتون إليه إلا وهم متسلحون ومحترزون، وهو يلاطفهم ويبش - يبتسم- في وجوههم.. إلى أن كان اليوم الموعود به، عزم عليهم في الغليون الكبير «السفينة» الذى يقال له «أزج عنبرلي»، فلم يجدوا القبودان، أحسوا بالشر، وقيل إنه كان بصحبتهم، فحضر إليه رسول وأخبره أنه حضر معه ثلاثة من السعاة بمكاتبة، فقدم ليرى تلك المراسلة، فما هو إلا أن حضر إليهم بعض الأمراء، وأعلمهم أنه ورد خط شريف باستدعائهم إلى حضرة مولانا السلطان، وأمرهم بنزع السلاح، فأبوا، ونهض محمد بك المنفوخ وسل سيفه وضرب ذلك الكبير فقتله، فما وسع البقية إلا أنهم فعلوا كفعله وقاتلوا من بالغليون من العساكر،

وقصدوا الفرار، فقتل عثمان بك المرادي الكبير وعثمان بك الأشقر ومراد بك الصغير وعلى بك أيوب ومحمد بك المنفوخ ومحمد بك الحسيني وابراهيم كتخدا السناري».
بمقتل صاحب بيت السناري إبراهيم كتخدا السناري.. البواب سابقًا، وبطل حكايتنا، وانتهاء صفحة هامة من تاريخ مصر.. اختم الحكاية بدعاء المصريين الأشهر في هذه الفترة..
يا خفي الألطاف.. نجنا مما نخاف.
الهمشري: كلمة فارسية بمعنى بلدياتي وتستخدم في العامية بمعنى الفوضوي.
الانكشارية تعريب لكلمة «يكني جاري» التركية التي تعني الجيش الجديد أو الجنود الجدد، وهم أقوى فرق مشاة الجيش العثماني، وأكثرها تدريبًا وإعدادًا وتسليحًا، وكان يتم جلبهم وهم صغار إما بالمال أوعن طريق السبي من المدن المفتوحة من قبل الجيش العثماني .
الدلاتية: جمع ديلي، وهي كلمة تركية معناها المجنون، وأطلقت كلمة دلاة أو دلاتية "جند من أكراد سوريا" على هذا الجيش لشهرة رجاله بالتهور.. استعان بهم خورشيد باشا في صراعه مع محمد علي على حكم مصر، وقسوتهم وهمجيتهم مع المصريين كان المسمار الأخير في علاقة خورشيد بالمصريين .
خشداش: تعريب للفظ الفارسي خواجة تاش، ومعناه زميل الرق والخدمة وتقال على المماليك الذين نشأوا عند أستاذ واحد.
قبودان: قائد البحرية، وحرفت إلى قبطان.
صنجق: كلمة تركية معناها العلم واللواء، وقد أصبحت تطلق على الجزء من الولاية الكبيرة "محافظة"، ولا يزال مرادفها في العربية هو اللواء، والصنجق أيضا الحاكم على هذا الجزء من الولاية "محافظ".
كتخدا: هو وكيل الباشا، ويعينه السلطان برتبة صنجق، ويتغير بتغير الباشوات، وقد حرف الاستعمال إلى كخيا.

سي عـبده

(١)

قال الحكيم الصيني كونفوشيوس: أروني أغاني أمة أريكم مدى حضارتها.

وأغاني أمتنا في منتصف القرن التاسع عشر كانت منقسمة إلى أنصار الأغاني التركية وبشارف البلاط العثماني أمان يا للالي، وهى أغانٍ كانت حكرًا على صالونات الطبقة الأرستقراطية، وأنصار السير الشعبية والمواويل وصهبجية آه يا لالالي، وهى أغانٍ كانت تمتاز بها المقاهي الشعبية والحوارى..

أما الطبقة الوسطى التي كانت تنشد الواقعية في الغناء كانت بلا أغانٍ تميزها حتى ظهر سيد درويش، فخرجت معه الأغنية من الصالونات والمقاهي، ودخلت البيوت الأرستقراطية وبيوت العامة، وذابت الطبقية الغنائية بين المصريين، وتوحدوا فنيًا قبل أن يتوحدوا سياسيًا..

ظهور الشيخ سيد نتيجة لها العديد من المقدمات ، فبالإضافة إلى الحراك السياسي في الشارع المصري على خلفية ثورة ١٩.. كان ظهور نجوم الطرب «الصيبيطة» أهم المقدمات التي مهدت الطريق أمام سيد درويش ليقدم ثورته الغنائية..

وبعد أن كان الشعب يسمع ويتسلطن مع الصيبيطة رواد النهضة الموسيقية أمثال فريد عصره عبده الحامولي.. أصبح الشعب يغني مع سيد درويش.

(٢)

بدأ الحامولي من حيث انتهى أستاذه رائد الأغنية المصرية الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب.. تسلم منه القالب الغنائي الذى ابتكره «الدور» كبداية تمصير الأغنية، وأضاف إليه وطوره، فوصل به لقمة المجد، وأطلق عليه ألقاب.. سيد مطربي عصره.. فريد عصره.. المطرب المغرد.. سي عبده.



عبده الحامولى

ولد عبده الحامولي عام ١٨٤٢، وماتت أمه وهو في الخامسة من عمره، وتزوج الأب في نفس العام، فعرف الوجع والألم والحرمان، وكما قالوا قديمًا «يولد الإبداع من رحم المعاناة»، والمعاناة في حياة الحامولي كانت أرضًا خصبة للإبداع، فأبدع وعمره لم يتجاوز خمسة عشر عامًا بصوته شجنًا عند ساقية بلدته..

ده أنا لو شكيت ربع ما بي للحديد ليدوب

سمع الناس لأول مرة صوته وآهاته ومواويله، وافتتنوا به وأحبوه، فأصبح ضيفًا دائمًا في الموالد والأفراح والأسواق، ليغني ويطرب محبيه..

عز على والده أن يعمل ابنه مغنيًا، فطرده من منزله، وتبرأ منه، وكانت القطيعة بينهما..

والله إن ساعدني زماني ما أسكن إلا في مصر..

وأبني جنينة ومن فوق الجنينة قصر.

ترك الحامولي طنطا، ورحل إلى القاهرة، وقادته قدماه إلى قهوة «عثمان أغا» بجوار جنينة الأزبكية، وهناك تعرف على المطرب الشهير في ذاك الوقت «المعلم شعبان» الذى اكتشف أن الحامولي صاحب موهبة فريدة، وقدرة غنائية متفردة.. تعهد شعبان بتعليمه أصول المغنى والموسيقى، ونقل إليه خبرته التي اكتسبها في سنوات.. موهبته وخبرة شعبان.. جناحان حلق بهما الحامولي في سماء مصر، وتربع على عرش الغناء.

(٣)

كان الخديوي إسماعيل لا يطرب للغناء إلا بصوت الحامولي، فقربه منه، وأطلق عليه لقب «المطرب المغرد»، ومن كثرة تطريب الحامولي للخديوي.. حافظ على حالته النفسية ومزاجه العام.. حدث أن غنى أمامه

ما كنش كده طبعك يا غزال

بشكل كئيب وحزين على غير عادته، فاستدعاه الخديوي ليقترب من مجلسه، وحاوره..

- أهناك ما يكدر صفوك؟

- وكيف يجد الكدر إلي سبيلًا وأنا في رحاب ولي النعم!!

- لكنك محزون، فماذا حدث؟

- لم يحدث أمر ذو بال، فلا تشغل نفسك بأمري يا مولاي.

- بل لابد أن أقف على السبب.

روى للخديوي أنه بعد أن نال شهرته الواسعة زار والده محملًا بالهدايا، ليسترضيه طالبًا منه السماح، ولكن خاب ظن الحامولي في الزيارة..

- أنت مين؟

- ألم تعرفني يا أبي؟ أنا ولدك عبده.

- ليس لي ولد يحترف الغناء.. إن ولدي عبده الذي أعرفه مات من زمن بعيد

وطرده والده من المنزل للمرة الثانية..

- وهكذا يا مولاي.. أظلمت الدنيا في وجهي، ولا أرى لما أنا فيه من نعمة سابغة أي معنى ما دمت عاجزًا عن الحصول على رضاء أبي.

- إنها مسألة بسيطة.. فدع عنك التفكير فيها.

بعد أيام من حوار المطرب والخديوي، فوجئ الشيخ الحامولي والد مطربنا بدعوة عاجلة لمقابلة مدير مديرية روضة البحرين، وهو الاسم الذى كان يطلق على الغربية والمنوفية مجتمعين، ومديرها هو وزير محافظ.. ذهب الأب للقاء المدير وهو قلق ومتخوف، فلم يحدث أن قابل في حياته مديرًا أو مسئولًا، وعندما دخل مكتب المدير، وجده في اجتماع مع باشاوات وأعيان المديرية، وعن يمين المدير جلس ابنه عبده الحامولي.. لم تصدق عيناه هذه المكانة التي وصل إليها ابنه، ووقف في ذهول، فدعاه المدير إلى الاقتراب..

- إن ولي النعم قد أمرني بأن أدعوك إلى هذه القاعة لكى ترى بعينيك مكانة ولدك بين أعيان المديرية، وهي مكانة تجعله يتقدم عليهم في الحفلات والاجتماعات.

- نعم هذا ما أراه يا سعادة الباشا

- أليس يحق لك أن تفخر بولدك، وقد رأيت أية منزلة يتمتع بها؟

- لم أكن أعرف أن له هذه المكانة.

- أما وقد عرفت.. فخذ مكانك إلى جانبه، وعانقه حتى يعرف أنك لم تعد تسيء الظن به.

استشعر الخديوي حرص مطربه على علاقته بأبيه، واحتياجه لعودته إلى جذوره، فأعد هذه الخطة حتى يزيل الحزن عن قلبه، ويعود لسابق عهده في الغناء..

(٤)

كما كان مطربًا للخديوي، وصديقًا للأعيان، ونجم حفلات علية القوم.. لم ينس أن للمصريين حقوقًا عليه، فهم جمهوره الحقيقي، وصانعو شهرته، ومريدوه الأوائل، ولهم عليه فضل لم ينكره.. يغني لهم، فيطربهم شجنًا، ويطربوه دعمًا وتشجيعًا.. لذلك له معهم العديد من النوادر والطرائف التي تظهر مدى امتنانه لهم..

زاره رجل بسيط في منزله، فاستقبله ببشاشة وجهه المعروفة عنه، ودعاه إلى الجلوس، وبعد فترة توتر وقلق بدت على وجه الرجل البسيط تشجع..

وقال للحامولي: يا سي عبده أنا من خدامين رجال تختك - فرقتك الموسيقية - أحملهم أفرادًا على حماري عقب كل سهرة إلى دورهم، وقد كبر ولدي ووحيدي، فأردت أن أزوجه وأفرح به، وكنت في القهوة، فدعوت بعض إخواني الحمارين لمشاركتي في الفرح، فقال أحدهم متهكمًا "يعني حتجيب الحامولي يغني!!" فحلفت بالطلاق على غير وعي مني بأنني سأفعل، وقد جئت إليك راجيًا أن تمن علي فتحضر لتقول يا ليل وتنصرف.. لأنه لا يرضيك أن أعمر دار ولدى وأخرب داري.

وقف الرجل في خجل شديد، وتقدم من الحامولي، ومد يده بدينارين.. ابتسم الحامولي في لطف، ورد المبلغ ليد الرجل، وسأله عن موعد الزفاف، وعنوان بيته..

بعد انصراف الرجل.. دعا الحامولي مساعديه، وأمرهم بكسوة الأسرة كاملة، وإرسال ملابس الزفاف للعريس وعروسه، وطلاء المنزل بالكامل، وتزيينه بالأعلام، والاستعانة بأكبر "فراش" في البلد لإقامة سرادق كبير للفرح، وتجهيز عشاء فخم للمعازيم.. كل هذا كان يتم والرجل البسيط في حالة ذهول غير مصدق لما يحدث..

في الليلة الموعودة حضرت العوالم للغناء للسيدات، وحضر الحامولي بتخته للغناء داخل السرادق.. قيل عن هذا الحدث إن الحامولي غنى في الحفل كما لم يغن لا من قبل ولا من بعد.

(٥)

إعتاد كل من الحامولي والخلعي وسيد درويش الاستماع إلى الغناء الارتجالي للباعة في الأسواق والشوارع، والاستعانة بهذا الغناء المعجون بروح المصريين لتطوير الأغنية، وتمصيرها بعيدًا عن آمان يا لاللي..
أثناء ممارسة الحامولي لهذا الطقس بعد عودته من سهرة صباحي في بيت أحد الباشاوات.. شاهد بائعة فجل عجوز تبكي، وتنعي حظها السيئ.. اقترب منها يستفسر عن حزنها، فعرف أنها لم تبع من الفجل شيئًا لعدم قدرتها على تسويقه بالغناء، وأن جارتها الصبية الصغيرة تبيع أفضل منها، وأنها مكبلة بمسئولية بيت كامل فيه أسرتها الفقيرة..
أمسك الحامولي الفجل، وغنى للناس "ريان يا فجل"..
غناها وأبدع بالبياتي والصبا وراحة الأرواح والنهاوند والحجاز، وغيرها من المقامات الموسيقية.. في هذه الفترة كان الغناء يعتمد على الصوت أكثر من الكلمات، وكان المطرب بكلمات غاية في البساطة يغني مستعرضًا كل إمكانياته الغنائية..
تجمع الناس حوله، وتزاحموا عليه.. ينشدون طربه، ويشترون فجل العجوز، فباع لهم حزمة الفجل بطريقة المزاد.. ها.. مين يزود؟
انتشر الخبر في دقائق، وحضر لموقع الحدث باشاوات كانوا عائدين من سهرتهم، وشاركوا الناس هذه الاحتفالية الغريبة، واشتروا الفجل بجنيهات ذهبية محبة في الحامولي وعشقًا في صوته.. ما باعه الحامولي وأعطاه للسيدة يفوق في مجموعه سعر بيت من بابه..
تحاكى الناس عن هذا الموقف، وتناقلوه في سهراتهم، وقيل وقتها "الحامولي.. فريد عصره ولو غنى ريان يا فجل"، وجرت المقولة بين الناس مجرى الحكم والأمثال.

(٦)

في احتفال كبير أقامه منير هلال بك مدير الغربية.. سمع الحامولي لأول مرة صوت ألمظ قادم من جناح الحريم، فبدأ قلبه يخفق فرحًا بهذه الموهبة المتفردة، وغنى بعدها وأبدع.. عشق الحضور هذا المزيج من الإبداع بينهما، وأحبا تواجدهما معًا في حفلة واحدة، ولم يقم بعد ذلك احتفال في قصر من قصور المحروسة إلا وألمظ والحامولي يتبادلان الغناء.. في شكل مباراة تنافسية فنية.. المستمعون هم الفائز الوحيد فيها.



الست ألماظ

حتى التقيا في حفل بحي الجمالية، وكان يصاحب الحامولي صديقه وتلميذه الشيخ يوسف المنيلاوي الذى حافظ على تراث الحامولي وسجله.
سمع الحضور في هذا الحفل صوت أميرة الغناء العربي ألمظ يغرد..
رد يا اللي تروم الوصال .. وتحسبه أمر ساهل
ده شيء صـــعب المنال .. وبعيد عن كل جاهل.
فرد "الحامولي" العاشق المتيم..
روحي وروحك حبايب .. من قبل دا العالم
وأهــل المودة قرايب .. تسلمي مع كل سالم
لتختمها الأميرة "ألمظ"..
خبط الهوى ع الباب .. قلت اطلبوه أهو جالي
وبدأت شخصيات كبيرة أحست بميل كل منهما للآخر للتقريب بينهما، وتم الأمر في آخره بزواج الحامولي من ألمظ، فكسب زوجة وحبيبة، وخسر الفن صوتها بعدما قرر أن يمنعها من الغناء كرجل شرقي يغار على زوجته، ولم يسلم الحامولي من التلسين بسبب هذا المنع، واتهموه بأنه كان يخشى منافستها..



المنيلاوى وتخته الموسيقى

كتب أبو الوفا محمود في الكتاب الوحيد الذى يؤرخ لسيرة حياة ألمظ "كان عبده الحامولي سيد المغنيين في عصره، وكانت شمسه مشرقة في عالم الفن ترسل شعاعها القوي في كل ناحية حتى ظهرت ألمظ، وكاد فنها يحجب نور تلك الشمس، وكان إذا اجتمع عبده وألمظ في فرح.. يغني للرجال، وتغني للنساء.. كانت موجة صوتها القوي تكتسح صوته" ..

واستشهد أبو الوفا بمقطع من كتاب "أشهر الجواري والمغنيات" ليثبت وجهة نظره "كما حسدها كل المغنيين والمغنيات، وكان عبده الحامولي أشهر المطربين في ذلك العهد، فأعجب بها، وقيل إنه أخذه الخوف من شهرتها أن تطغى عليه أيضا، فأخذها بالحيلة والمكر والتودد بعد أن رأى أن الشدة والعدوان لا تجديان فتيلًا، وأظهر لها الحب حتى تزوج بها، فلما صارت له منعها من الغناء وتقدم هو فعادت إليه شهرته الأولى، وأسف الناس على احتجاب ألمظ عن عالم الغناء"..
فقرة كبيرة في الكتاب اعتمدت على "وقيل" اعتمد عليها الأستاذ أبو الوفا في نظريته.. الثابت أن الحامولي أحب ألمظ بالفعل، وأنشد في غرامها عددًا كبيرًا من أغنياته، والثابت أيضًا في نفس الكتاب أن ألمظ نفسها كانت زهدت حياة القصور، والغناء فيها، واستأذنت من الخديوي أن تمكث في دارها بدرب سعادة، وتبتعد عن الأضواء التي كبلت حريتها.
(٧)
فجأة ماتت زوجته وصديقته وحبيبته المطربة "ألمظ" عن عمر ٣٦ عامًا، فغنى حزنًا على فراقها..
شربت المر من بعد التصافي .. ومر الحال معرفتش أصافي
يغيب النوم وأفكاري توافي .. عدمت الوصل يا قلبي على
على عيني بعاد الحلو ساعة .. ولكن للقضا سمعًا وطاعة
لم يمهله القدر الوقت الكافي لاستيعاب فراق محبوبته ألمظ، فالمصائب لا تأتي فرادا.. توفى وحيده "محمود".. وصله الخبر وهو يحيى حفل زفاف.. أمسك عوده وقال لجمهوره..
- لقد شاركتموني أفراحي، فهل تشاركوني أحزاني
وارتجل غناء..
الصبر محمود لمثلي على حبيبي وبعده
والحزن في القلب يسلي..
والرب يلطف بعبده
يا كبدي يا ولدى.
لم يتحمل الحامولي فراق الزوجة والابن.. الحبيبة والوحيد.. ألمظ ومحمود.. اعتزل الناس، وعاش سنوات قليلة بعدهما في وحدة، وغادرنا عام ١٩٠١.. تاركًا إرثًا فنيًا مصري الهوية.

جراح باشا

(١)

كنا أطفالًا حين اشتكى صديقي المقرب لأمه من «التعنية» التي يعاني منها، وسببت له آلامًا لا تحتمل، فاقتربت الأم من ابنها واحتضنته، وطمأنته بأن لديها العلاج الأمثل لحالته.. غابت لدقائق، وبعدها استدعتنا إلى أعلى سطوح المنزل، فصعدنا درجات السلم بسرعة، واقتربنا منها في فضول بعد أن لمحناها ممسكة بقالب بناء «طوب أحمر» تم تسخينه داخل فرن بلدي، ولُف «القالب» بـ «فوطة» سميكة، ووضعته الأم على الأرض، وطلبت من ابنها الجلوس عليه لدقائق قليلة حتى تتسرب السخونية إلى جسمه، فتتبخر التعنية أسفل بطنه..

ما فعلته الأم يسمى بالطب الشعبي، وهو قائم على ممارسات ومعتقدات وتجريب من آخرين دون الحاجة لتعاطي أعشاب أو أدوية.. اسأل مجرب.

وهناك ممارسات أخرى للطب الشعبي مثل طريقة المنديل والمفتاح الكبير لعلاج الصداع، والكي بالنار في منطقة الفخذ لعلاج العقم والعجز الجنسي، وغيرها..

انتشر هذا النوع من علاج الأمراض والإسعافات الأولية بعد أن خيم الظلام على مصر بالغزو العثماني ١٥١٧م، فتدهورت حالة الطب كما تدهورت الفنون والحرف بعد ترحيل العلماء ومشايخ الحرف وأرباب الفنون بطريقة مهينة إلى الأستانة للاستفادة منهم هناك..

وصف على مبارك هذا المشهد في خططه التوفيقية «ابتداء من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر هجريًا أُهمل أمر المدارس، وامتدت أيدي الطماع إلى أوقافها، وتصرف النظار فيها على خلاف شروط وقفها، وامتنع الصرف على المدرسين أو الطلبة والخدام، فأثروا مفارقتها وصار ذلك يزيد في كل سنة حتى انقطع التدريس فيها بالكلية، وبيعت كتبها وانتهبت، وامتدت أيدي النهب إلى بيع رخامها وخشبها، فصارت أثرًا بعد عين، ولله عاقبة الأمور»..

وأيد كلوت بك في كتبه «لمحة عامة إلى مصر» ما ذكره مبارك، وأضاف «بعد الفتح العثماني أغلقت المدارس أبوابها، وطرحت المصنفات في زوايا النسيان، ومسخ علم الطب، واندثرت معالمه، وأصبح وقفًا على المجربات الذين عمدوا إلى الوسائل المضحكة في ممارسته.. كما أصبح ميزة خاصة بالحجامين الذين انتحلوا لأنفسهم الاختصاص بمباشرة العمليات الجراحية»..

الحلاقون والحجامون كانوا طبقة الجراحين في مصر.. مارسوا مهنة الطب تحت رئاسة شيخ حرفة يطلق عليه «جراح باشا».. لم يتعلموا في مدارس، ولم يقرأوا كتب، ولم يزاولوا المهنة بأدبياتها المتعارف عليها عالميًا والمجهولة لدينا محليًا، فاعتمدوا على الوصفات القديمة في الطب الشعبي والطب البديل، واعتمدوا على الحدس الشخصي.

(٢)

بجانب العلاج الشعبي كان هناك الطب البديل، وهو طب الأعشاب، وكان «حي العطارين» في الغورية حتى وقت قريب هو البديل للأطباء والصيادلة، وفيه من وصفات الأعشاب الشعبية ما أصبح بديلًا للأدوية والتركيبات الكيميائية وعلم الطب وفن الصيدلة.. مثل خواصي نسر ولسان هدهد وقلب برغوت وسقمونيا وحزنبل وعنكة وشدو بلابل وكينا سنجابي وعين النمس ورجل العفريت، وكانت أشهر الوصفات الطبية التي ذكرتها مجلة المصور أغسطس ١٩٤٩م زيتونة بني إسرائيل تفتت حصوة الكلى، ودم الأخوين مخلوط مع النخوة الهندي والصمغ العربي والسكر

النبات يعالج الإسهال، والحزنبل مع اليانسون يقوي الجسم، والحنتيت ينشط الدورة الدموية، والثلاثة معا ينشطون الحالة الجنسية، والمغات مخلوط مع السحلب والشرغدان والبهمل والحبهان والدارصيني يعالج النحافة التي لم تكن تناسب مقاييس الجمال في ذلك الوقت..

«راح تطلعي وحشة لمين!!.. ده الأب عريض وسمين»

ووصفات تفتح الشهية، وتخفف آلام البواسير، وتعالج الزوجة العاقر.. تجاوز الأمر الطب والعلاج، فظهرت الوصفات التي تجلب الحبيب، وتبعد الحسود، وتفك عمل المسحور، وتعيد أيام الشباب والشقاوة..



الدقاق

وكان العطار هو الطبيب.. يستمع للمريض، ويصنف المرض، ويصف الأعشاب اللازمة للعلاج، ويزن بالمكيال المقادير اللازمة لكل نوع، ويأخذ المريض الأعشاب، ويذهب بها إلى «الدقاق»، والدقاق شخص يقوم بخلط الأعشاب مع بعضها، ثم ينقيها من الشوائب، ويدقها في «هون»

مناسب لطبيعة الأعشاب، وكانت بعض الوصفات توضع على النار، ويكتفي المريض بالمرور فوقها أو بجوارها سبع مرات بمساعدة الدقاق.

(٣)

ولأن للأفكار أجنحة تتخطى بها الحدود..

فرنسا في القرن السادس عشر كان لديها هيام وولع بكل ما هو مصري، فسافرت الأفكار والمعتقدات من مصر إلى فرنسا..

كتب روبير سوليه في كتابه «مصر ولع فرنسي» أن في فرنسا كان العطارون يبيعون عقارًا اسمه مومياء، وهو عبارة عن مسحوق أو معجون يميل لونه إلى السواد، ومن المفترض أنه مستخرج من حرق المومياء، وقد حصل هذا المنتج على شهرة كبيرة، وكان الإمبراطور فرانسوا الأول ذاته لا يذهب في رحلة إطلاقًا دون أن يأخذ معه حقيبة جلدية صغيرة مشتملة على مسحوق المومياء، وقد اشتهر هذا المنتج بأنه يشفي أمراض الجهاز التنفسي والهضمي ونزيف الدم ونزيف الحيض الزائد عن الحد، واشتهر أيضًا بأنه مادة مثيرة للشهوة الجنسية.

(٤)

كانت فرنسا هي قبلة التمدن في عين محمد على باشا بعد أن رأى النظام والمعرفة والعلم في الإرسالية الفرنسية بمصر، ولإن الجيش كان الحائز على تفكيره، وأداة حلمه في النهضة.. استعان بالفرنسي جوزيف إنتيلمى سيف «سليمان باشا الفرنساوي» عام ١٨١٩ لتكوين جيش مصري عصري، وبعد ست سنوات تعاقد التاجر الفرنسي «تورنو» بطلب من محمد على باشا مع الطبيب الفرنسي انطوان براثيلمى كلوت «كلوت بك» ليعمل في الجيش في منصب «جراح باشا» لرعاية صحة أفراده.



كلوت بك

لم يكن في مصر قبل كلوت بك سوى المستشفى العسكري بالأزبكية، فأسس المستشفى المركزي العام بأبي زعبل، وشكل لجنة صحية للرعاية، وأسس أول مدرسة للطب عام ١٨٢٧ ملحقة بالمستشفى المركزي بعد أن أقنع رجال الدين بضرورة تشريح الجسم في سبيل تقدم العلم والطب، وبعد أن ألحق مائة طالب أزهري بالمدرسة لتكوين النواة الأولى لطلبة الطب على أن تكون دراستهم باللغة العربية، وألحق بالمدرسة مدرسة أخرى أصغر لتعليم مادة اللغة الفرنسية، وأضاف للمدرسة متحفًا للتاريخ الطبيعي، ومكتبة طبية كبيرة ساهم في تكوينها كلوت بك والملك لويس فيليب، وأساتذة المدارس الطبية في باريس ومونبلييه.

أما الشكل المعماري للمستشفى المركزي والمدرسة طبقًا لـ موسوعة تاريخ الطب في مصر للدكتور محمود المناوي، فقد كان في السابق قشلاق للسواري، وقشلاق بالتركية معناها بيت الجند

أو الثكنة العسكرية، ومساحته مربع طول ضلع مائة وخمسين مترًا، وارتفاعه عن الأرض يعلو مترًا ونصف المتر، ومقسم إلى أربعة أجنحة، وكان كل من الجناح الشرقي والشمالي والجنوبي مقسمًا إلى ثمانية عنابر، ويحتوى كل عنبر على خمسين سيرًا مصفوفة على صفين، والجناح الرابع «الغربي» كان يحتوى على العيادات والمخازن وصالة الضباط والصيدلية والحمامات والمطابخ، واحتوت المستشفى ساقية لتزويدها والمدرسة بالمياه العذبة الصافية، وزينت المساحات بين الأجنحة بأجمل النباتات وأندرها، وبلغت درجة الاهتمام بهذه النباتات أن الدكتور «دوليل» أستاذ النباتات في جامعة موزمبلية يرسل للمستشفى كل ما هو نادر وقيم من النباتات لمدة عشرين عامًا.

(٥)

ولأهمية مدرسة الطب كانت امتحاناتها تتم في حضور الأعيان مثل وكيل الحربية عثمان نور الدين بك والعلماء وقناصل فرنسا وروسيا وهولندا والنمسا، وترأس لجنة الامتحان الأولى المسيو بوزاري الطبيب الخاص للباشا محمد علي، وكان الخريجون الجدد يقسمون «عهد الأطباء» قبل مزاولة المهنة.

« أقسم بالله العظيم ونبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم علي أني أكون أمينًا حريصًا على شروط الشرف والبر والصلاح في تعاطي صناعة الطب وأن أسعف الفقراء مجانًا ولا أطلب أجرة تزيد على أجرة عملي وإني إذا دخلت بيتًا فلا تنظر عيناي ماذا يحصل فيه ولا ينطق لساني بالأسرار التي يأتمنوني عليها ولا أستعمل صناعتي في إفساد الخصال الحميدة ولا أعاون بها على الذنوب ولا أعطي سُمًّا البتة ولا أدل عليه ولا أشير به ولا أعطي دواء فيه ضرر على الحوامل ولا إسقاط لهن وأكون موقرًا وحافظًا للمعروف مع الذين علموني مكافئًا لأولادهم بتعليمي إياهم ما تعلمته من آبائهم فما دمت حريصًا على عهدي وأمينًا على يميني، فجميع الناس يعتبرونني ويوقرونني وإن خالفت ذلك فأكون بمرذل المحتقر والله شهيد على ما أقوله قد تم العهد".



هذا عهد الاطبا

اقسم بالله العظيم ونبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم على اني اكون امينا
حريصا على شروط الشرف والبر والصلاح في تعاطي صناعة الطب
وان اسعف الفقراء مجانا ولا اطلب اجرة تزيد عن اجرة عملي واني اذا دخلت
بيتا فلا انظر بعيني ما يحصل فيه ولا ينطق لساني بالاسرار التي
يأتمنوني عليها ولا استعمل صناعتي في افساد الخصال الحميدة ولا اعاون
بها على الذنوب ولا اعطي السم البتة ولا ادل عليه ولا اشير به ولا اعطي دواء فيه
ضرر على الحوامل ولا اسقط الحمل واكون موقرا وحافظا للمعروف مع الذين
علموني مكافئا لاولادهم بتعليمي اياهم بتعليمهم ابائي فاذا دمت حريصا على
عهدي وامينا على يميني فجميع الناس يعتبروني ويوقروني وان خالفت
ذلك فاكون عرضة للاحتقار والله شهيد على ما اقول قد تم العهد

(٦)

فشلت البعثات التعليمة الأولى في أوائل عهد محمد على لأن أكثر المبعوثين كانوا من الشبان الأتراك وأبناء المماليك الميالين إلى الترفيه، فاكتفوا بعد عودتهم من الخارج، وحصولهم على أعلى الشهادات والخبرات بالمناصب الكبرى في البلاد، واعتزلوا الأهالي تكبرًا وغرورًا، ولم تستفد منهم البلاد كما استفادوا هم منها.
في عام ١٨٢٦ أرسل محمد على باشا إلى فرنسا أربعين طالبًا منهم على باشا مبارك.. فتحت لهم مدرسة خاصة في باريس تحت إدارة مسيو جوما «من علماء الحملة الفرنسية» الذى اختار لهم أكفأ المدرسين في مختلف الفروع، وأرسل عام ١٨٣٢ اثنى عشر طالبًا من أوائل الامتحان النهائي لمدرسة الطب المصرية إلى باريس بناء على طلب من كلوت بك، ليتموا دراستهم على يد أكبر أساتذة فرنسا ويعودوا للتدريس لزملائهم المصريين، ويكونوا النواة الأولى لهيئة التدريس الطبية المصرية.
ذهب كلوت بك في صحبة الاثنا عشر تلميذًا، وعند وصولهم إلى باريس طلب اختبارهم في الجمعية العلمية الطبية، وحدد يوم ١٨ نوفمبر ١٨٣٢ ميعادًا لهذا الاختبار، فتناولت الجرائد هذا الخبر، وتحول الأمر إلى احتفالية حضرها علماء الطب، وأعضاء الجمعية العلمية الملكية، وأعيان باريس وفى مقدمتهم البارون ديبوا، وطبيب ملك فرنسا الدكتور مارك، وتشكلت منهم لجنة الامتحان برئاسة «مسيو أورفيلا»، وخضع للامتحان كلا من الطلبة..
«محمد على البقلي، ومحمد الشافعي، ومحمد السكرى، وأحمد الرشيدي، وحسن الرشيدي، ومحمد منصور، وأحمد بخيت، وإبراهيم النبراوي، وحسين الهيهاوي، وعيسوي النحراوي، ومصطفى السبكي، ومحمد الشباسي».
أول الممتحنين كان محمد منصور، واختبر في تركيب العين وأمراضها وعلاجها، ثم الهيهاوي، واختبر في أمراض المثانة، واختبر النبراوي في عملية الحصوة، واختبر الآخرون في أمراض أخرى..
واختتم البارون ديبوا الاحتفالية بخطبته التاريخية..
«أيها التلامذة بنو مدرسة أبى زعبل..
إنا نعد أنفسنا سعداء حيث دعينا إلى مشاهدة ما اكتسبتموه بهذه المدرسة من المعارف، وما نلتموه من النجاح في ظلها الوارف - بكل ما تحمله كلمة نجاح من معنى- وناهيكم بها مدرسة فإنها حفظت بمصر من آثار أزهار القواعد الطبية بعد ما أصابها الذبول، وأعادت ذكر اسمها بعد ما اعتراه الخمول، ولا غرو فإن ما غرس فيها من أصول اللطائف الطبية عادت على مصر ثمرته، ورجعت إليها فائدته.. إن إجابتكم اليوم جعلت لنا أملًا وطيدًا في أنكم ستنتهجون منهج أجدادكم من أعاظم الحكماء وكبار الأطباء كابن سينا والرازي وأبي القاسم، وأظنكم ستسيرون على أثرهم حتى يقال نعم السلف.. إن هذه الجمعية انشرح خاطرها لقدومكم»
وبعد ثماني سنوات وتسعة أشهر عاد الأطباء الشبان إلى مصر، وتفرغوا للبحث والتأليف، والعناية بصحة أبناء وطنهم، وتنظيم مدرسة الطب بأبي زعبل.. قبل أن تنتقل المدرسة إلى قصر

أحمد بن العيني، وهذه حكاية أخرى.



كل شيء والعالم

العدد ١٣١ — الاثنين ١٤ مايو ١٩٢٨ — الثمن ١٠ مليمات

KOL-SHEI • Cairo, 14 May 1928 • Vol. III No. 131

اول بعثة مصرية تتعلم في باريس

قصر ابن العيني

(١)

عندما كان قصر العيني أو القصر العيني كما نطلق عليه في عاميتنا الدارجة قبلة العلاج الأولى في مصر حتى أواخر الثمانينات قبل انتشار المستشفيات الخاصة الدرجة الثانية والثالثة.. كنا نذهب إليه ونحن أطفال مع أمهاتنا لزيارة المرضى الأقارب القادمين من «البلد».. الأمهات يجلسن مع المرضى في عنابر بها أكثر من عشرين مريضًا، فتكثر حكايات الأمهات والمرضى عن المرض وسنينه، ويفوح من داخل العنبر رائحة «المحشي».. أما نحن فكنا نلعب في حدائق القصر وممراته الطويلة، وكان يشاركنا العاملون والممرضات اللعب.. هم القطط ونحن الفئران، والممرات بيت جحا.. بعد أن كبرنا قليلًا كانت زيارتنا للقصر شبه دائمة بسبب إدمان لعب كرة القدم.. كان الأسفلت ملعبنا الذى يحتضن أجسامنا النحيلة بقسوة كلما سقطنا عليه، فيترك بصماته على بشرتنا، وخاصة عند منطقة الركبة، وتمتد قسوته أحيانا إلى عظامنا الرقيقة، وكان القصر في هذا الوقت ملاذنا الأول والأهم لعلاج إصابات الملاعب الأسفلتية.. كنا نلجأ إليه للتجبيس والتجبير مجانًا، وأثنائها نسمع نصائح الأطباء والممرضين حول مخاطر اللعب في الشارع، وكانت تقال لنا في بعض الأحيان بشكل أكثر قسوة من الأسفلت.

انتشرت المستشفيات الخاصة، وتدهورت حالة القصر، ووصف المصريون حالته بـ «الداخل مفقود والخارج مولود»، ورغم ذلك يظل القصر شريكًا هامًا في طفولتنا، وأجد نفسى هنا مدينًا له بهذه الحكاية.

(٢)

آخر عهدنا بالنسق المعماري الأقرب للمحلية كان في عصر المماليك الذين تأثروا في عمارتهم بالروح المصرية ممزوجة ببعض الثقافات الأخرى، وظهر هذا التأثر في بناء الجوامع والمدارس والأسبلة والخانقاوات والقصور المتسمة بالزخارف البديعة والنقوش الرائعة والجمال والبساطة والبراح، وذلك قبل غزو نسق الكوكتيل المعماري الأوروبي في عهد الخديوي إسماعيل، وغزو النسق الروسي في عهد الرئيس عبد الناصر، وقبل اختفاء الهوية المصرية المعمارية..



كان قصر المملوك الثري الأمير شهاب الدين أحمد بن العيني أحد هذه الروائع التي بنيت في العصر المملوكي، وقد بناه على شاطئ نيل جزيرة الروضة عام ١٤٦٦م في عهد السلطان المملوكي - الرومي الأصل- الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم، وللأسف تم تفكيك هذا القصر، ولم يبق منه إلا وصف له ولمكانة صاحبه ذكره ابن إياس بحكم معاصرته للعيني ولفترة بناء القصر، وصورتان لجامع وقبر ابن العيني، وصورة لتكية بناها البكتاشيين، وسطر تاريخي يتيم في أحداث مقتل الجنرال كليبر، وحكاية أنقاضه للحكاء خيرى شلبي، ومدرسة للطب تأسست عام ١٨٣٧م.

(٣)

في «متنزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني» للدكتور محمد الششتاوي ذكر أن منشأة المهراني -اسم جزيرة الروضة قديمًا- عمرت عمارة عظيمة بعد أن أنشأ فيها الأمير شهاب أحمد بن العيني قصرًا عظيمًا يطل على النيل بجوار بساتين جانى بك، وكان هذا القصر والبساتين حوله متنزهات للسلاطين والولاة والأمراء والناس جميعًا في العصرين المملوكي والعثماني..



ووصف المؤرخ ابن إياس القصر بقوله «وقصر العيني بناية مربعة الشكل تحيط بها المتنزهات الجميلة، وله طابقان غير الطابق الأرضي، وكل الأجنحة فيه عبارة عن صفين من الغرف يفصل بينها دهاليز على طول امتدادها، وكل جناح ينقسم إلى أربع غرف – لمماليك ابن العيني- في كل غرفة خمسون سريرًا، والطابق الأرضي عبارة عن مغاور معقودة -طرقات متداخلة- تصلح مستودعات ومخازن، وفى وسط البنيان صحن فسيح جدا مغروز بالأشجار، وفى الجناح القبلي أربع بنايات كبيرة مفصولة بعضها عن بعض.. الأولى خاصة بالمعامل الكيميائية وغرف الطبيعة والتاريخ الطبيعي، والثانية لمحلات النوم وغرف الطعام، والثالثة للصيدلية العمومية، والرابعة للمطابخ والحمامات والمغاسل».

من وصف ابن إياس والشقاوي يتضح أن أحمد بن العيني كان ثريًا يمتلك المئات من المماليك، ومقربًا من السلاطين والأمراء، ومحبوبًا من الناس، وعالمًا في الطبيعية والكيمياء والصيدلة، ولا عجب أن يضيف ابن إياس عن مكانة الرجل «في سنة ٨٧١ هجريًا ١٤٦٦-١٤٦٧ تزايدت عظمة المقر الشهابي أحمد بن العيني، وصار صاحب الحل والعقد في الديار المصرية، وهو الذى انشأ القصر العظيم المطل على البحر بمنشية المهراني، ولما كملت عمارة القصر نزل السلطان خشقدم إليه».

شهد قصر ابن العيني العديد من الأحداث..

كان مقرًا للحكم أواخر عصر خشقدم، ومقرًا للحكم لبعض الوقت حين حل ضيفًا عليه السلطان العثماني سليم الأول بعد احتلاله مصر، وبنى البكتاشيين تكية لهم ملاصقة للقصر عام ١٨٨٧، وكان مقرًا لحكم المملوك إبراهيم بك، ثم مستشفى عسكري محصن للفرنسيين أثناء الحملة الفرنسية بعد هروب إبراهيم بك، ومنه شيع جثمان الجنرال كليبر، وأصبح قصرًا للضيافة بعد أن رممه محمد على باشا، وأخيرًا هدم القصر وأعيد بنائه كمستشفى ومدرسة للطب تحمل اسم «القصر العيني».

(٤)
ضاق مستشفى أبو زعبل المركزي بالمرضى والطلبة، ورأت الدولة أنها بحاجة إلى مكان أوسع وأقرب للحامية العسكرية في المحروسة، فقرر محمد على باشا منح قصر ضيافة أحمد بن العيني للهيئة الطبية لاستثماره في بناء مستشفى عسكري ومدرسة للطب تحل محل مستشفى أبو زعبل والمستشفى العسكري بالأزبكية..
وبدأ التخطيط عام ١٨٣٥ لهدم القصر القديم، وإقامة مبنى جديد يتناسب مع متطلبات المستشفيات الحديثة، وكما كان الاتجاه العام في مصر متأثرًا بالمدرسة الطبية الفرنسية.. كان تشييد المستشفيات العسكرية متأثرًا بالنسق الفرنسي.
سرد الحكاء الكبير خيرى شلبي في رائعته «بطن البقرة» عن دقائق هدم القصر القديم، ووصف حزن الأهالي من هذا المشهد الذى سيحرمهم من مشاهدة قصر طالما شاهدوه منذ طفولتهم، وحدث بينهم وبينه ألفة واعتياد.. ذكرني حكى الخال خيرى بمشهد مصور لرجل قادم من بلدته عام ٢٠٠٤، وأثناء خروجه من محطة قطار السكة الحديد بالقاهرة.. شاهدهم يستعدون لنقل تمثال رمسيس من مكانه، فوقف باهتًا في مكانه.. اقترب منه المخرج الصديق عمرو بيومي وسأله عن شعوره، فارتبك الرجل حزنًا وقال «أنا اتعودت كل ما أجي مصر أشوف التمثال»، وزاد ارتباكه حين قال «هشوفه فين بعد النهاردة!!!»..
إنه اعتياد العين على الأشخاص والأشياء والارتباط بها، ولو بشكل روتيني، وأصبح يقينًا أنها جزء من الحياة الخاصة، والنتيجة في العادة حالة عدم اتزان وارتباك نصاب بها إذا ما حدث خلل في سير الحياة اليومية.. كأن نفقد بشكل مفاجئ شخصًا اعتدنا على وجوده، فنطلق عليه فراق الشخص، ولكنه فراق بيننا وبين اتزاننا.
مما حكاه خيرى شلبي أن الأهالي تجمعوا مشفقين على القصر، وتلك خصوصية مهمة جدًا في الشعب المصري.. صحيح أن علاقة الأهالي بهذه القصور الفاخرة علاقة المشجع بالنادي الكبير، والمشاهد للفيلم السينمائي.. استمتاع بدون تجربة إحساس رفاهية الامتلاك «من بعيد لبعيد»، فهم لا يسكنون مثل هذه القصور الفخمة لكنهم مع ذلك يحبون وجودها بينهم، والاستمتاع بالنظر إليها..
في هذه الأثناء كان بينهم شيخ متصوف يسمى الشيخ على الوقاد، وهو شيخ له جذور مغربية، وحرفته التي يعمل بها تشكيل عيدان الخيزران كراس وترابيزات وأسرة، وكان الوقاد ذائع الصيت في هذه الحرفة، وله شهرة كبيرة ودخل مادى ميسور ساعده على امتلاك قطعة أرض في صحراء المماليك المجاورة لحي الجمالية وحي الدراسة مزروعة بالعديد من أصناف الفاكهة..
اندس الوقاد بين المشاهدين، وسمع مع من سمعوا حوارات المهندسين، وخطة الإزالة التي وضعوها، ولحسن الحظ كانت خطة مماثلة لتلك التي استخدمتها اليونسكو مع معبد أبو سنبل.. حيث النشر بحرص لقطع صغيرة وترقيم كل قطعة برقم يقابله في الرسم المعماري يسهل عملية تجميعه فيما بعد.



هنا دخل الوقاد وعدد من أثرياء ذلك الوقت في مزايدة نظمتها الحكومة لشراء أنقاض قصر أحمد بن العيني، فرسى عليه المزاد، وجاءت عربات الكارو لتحمل القطع المنشورة، ونقلتها إلى أرضه بصحراء المماليك، وجاء المهندسون، وجمعوا القطع بجانب بعضها مرة أخرى، وأعيدت هيكلة القصر وبناؤه بشكله المعهود في أرض الوقاد، وأعيدت أحواضه وأبوابه إلى مكانها على جدران القصر.. ما فعله الوقاد أتاح فرصة ذهبية للحكومات المتعاقبة لحكومة إزالة القصر إلى إعادة القصر الأثري إلى سابق عهده كتراث لا يمكن إهماله، ولكنهم مارسوا هوايتهم في تجاهل كل ما هو أصيل، فتحول إلى سكن خاص لورثة الوقاد، وأهمل تمامًا مع مرور الزمن.

(٥)

بعد عامين من البناء افتتحت مستشفى قصر العيني أبوابها للجمهور عام ١٨٣٧، وبعد عام واحد افتتحت المدرسة، وكانت مدرسة الولادة أول الأقسام التي بدأ العمل فيها برئاسة «مسز لويلون» الحائزة على المركز الأول في مسابقة جامعة باريس، ومدة الدراسة بها كانت خمس سنوات، وبعدها وزعن الخريجات على مديريات مصر المختلفة، وعملن مجانًا، وساعدن الحكومة في تطعيم الأهالي ضد مرض الجدري.

في ذلك الوقت عاد أفراد البعثة المصرية من الخارج، وعينوا في قصر العيني متساوين بالأجانب في الرتبة العسكرية «أميرالاي»، ومتساوين معهم في الراتب «عشرة جنيهات شهريًا»، وقام كلوت بك بتخصص كل منهم، فكان الرشيد للطبيعة والكيمياء، والشماس والهيهاوي للتشريح، وبخيت للبيلوجيا، والنبراوي للجراحة، والشافعي والسكري والبقلي للتدريس في مدرسة الطب..

لعشر سنوات كانت مدرسة الطب خرجت لمصر ٨٠٠ طبيب مؤهل في مختلف الأقسام والعلوم، وزار أثناءها الخبير الشهير مستر لاليماند المدرسة بناء على طلب من إبراهيم باشا لدراسة أحوال المدرسة، وكتابة تقرير وافٍ عن الطلبة بعد امتحانهم، فكتب في ٢ ديسمبر ١٨٤٨ «لقد امتننت جدًا من امتحان طلبة الطب في الأيام الثمانية، وفى ظني أنه لو تقدم طلبة من الفرنسيين في مثل هذه الظروف، وبعد هذه المدة لما كانوا أسبق من المصريين في مثل هذا الامتحان، وبين هؤلاء الطلبة من أعدهم فخرًا لأى جامعة أوروبية، وكثيرون يستحقون البعث لأوروبا كي يعودوا أساتذة أكفاء وأطباء ماهرين».

(٦)

لم يستمر هذا التوهج الحضاري كثيرًا..

كانت المستشفى جزءًا من نهضة بناها محمد علي واستكملها إبراهيم باشا، ولكن كان أول معول هدم لهذه النهضة الحفيد عباس حلمي الأول.. الذى ألغى البعثات، وبدل الإدارات، وتخبط في القرارات.

٩ سبتمبر ١٨٨١

يلجأ البعض لكتب التاريخ لتأكيد وجهات نظر مسبقة، فينتقون ما يناسبهم، وينبذون ما يتعارض مع أفكارهم، وهو ما يسمى دارجًا بالاصطياد.. ما يفعله هذا الفريق يتعارض كلية مع تعريفات ابن خلدون في مقدمته لعلم التاريخ « في ظاهره لا يزيد على أخبار الأيام والدول، والسوابق من القرون الأول تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف فيها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال».

وفى تعريف آخر «نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومباديها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق»، فعلم التاريخ أخبار وأقوال ومعرفة ونظر وتأمل وتجرد وتحقق وفهم.. خلاف ذلك وجهات نظر وآراء.

هذه الإشكالية تجلت حديثًا في تناول أحداث ٩ سبتمبر ١٨٨١.. حين أنكر البعض مواجهة عرابي للخديوي توفيق في قصر عابدين، واتهموا عرابي بالتدليس في مذكراته لحفظ بعض ماء الوجه الذى سال خجلًا بعد عودته من المنفى مهزومًا ومكسورًا، واتهموه بالكذب والتزوير والتلفيق، وأفاضوا واستفاضوا صحفيًا وفضائيًا لإثبات بما لا يدع مجالًا للشك أنه لم يذهب بجنده ممتطيًا حصانه إلى قصر عابدين، وأن الإمام محمد عبده لم يذكر في مذكراته هذه الواقعة لأنها ببساطة «محصلش»، وأن الشيخ عبد الله النديم صوت ولسان الثورة العرابية لم يتناول هذه الواقعة في مذكراته لا من قريب ولا من بعيد لأنها «محصلش خالص»، وزعموا أن هذه الواقعة ما هي إلا محض افتراء من عرابي نفسه، وليس لها أي سند تاريخي سوى مذكراته، وهذا المشهد لم يحدث على الإطلاق لا حرفًا ولا لفظًا ولا مشهدًا ولا حوارًا، وأكدوا أن ما درسناه في كتب التاريخ المدرسية ليس فيه أي دقة أو حقيقة، وهذه أكذوبة وبعض الأكاذيب تُصلح المعدة، وهذه الواقعة اضطر عرابي إلى اختلاقها بعد أن أهين من الأهالي عقب عودته من المنفى، وبعد أن هجاه أحمد شوقي بقصيدة مهينة ومذلة.. ليثبت للجميع أنه انتصر في شيء ما.

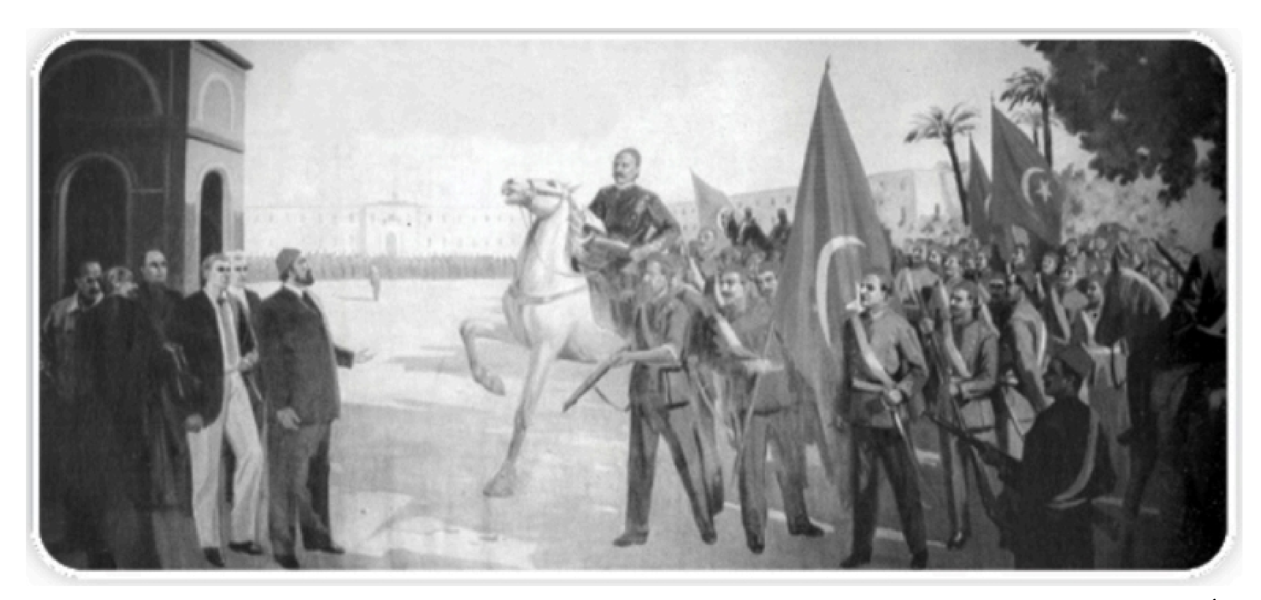
انتهت عريضة اتهام عرابي..

وكان ولابد من فصل التاريخ المحقق عن وجهات النظر..

ليس دفاعًا عن الرجل، ولكن للتاريخ وللحقيقة.

(١)

بالرجوع إلى مذكرات الإمام، وبالبحث عن أحداث هذا اليوم ٩ سبتمبر ١٨٨١.. نجد الإمام يصف الأحداث وصفًا دقيقًا غير قابل للتأويل أو الاحتمال، ويهتم بالتفاصيل، وبتفاصيل التفاصيل التي لم يذكرها عرابي في مذكراته..



بدأ الإمام السرد منذ وصول عرابي إلى قصر عابدين يقود فرقته وهو ممتط جواده شاهرًا سيفه، ويحيطه عشرة من ضباطه شاهري السيوف كحرس له، وأنبأه بعض الضباط أن «علي فهمى» قد أدخل عساكره في السراي للدفاع عنها إذا دعت الحال، فاستدعى علي فهمى واشتد في توبيخه ورماه بالخيانة، فاعتذر بأنه فعل ما فعل مداراة منه للخديوي وتدبيرًا لحيلة سياسية ثم أمر بالنداء في الألاي «الفرقة» بالنزول، فنزلت العساكر جميعًا واصطفت في الساحة مع بقية الجنود، وكان قناصل الدول الأوروبية ومستشارو الحكومة ونظارها قد حضروا إلى سراي عابدين..

ويستكمل الإمام السرد وتسجيل المواجهة بينهما.. أمر الخديوي بإحضار عرابي، فحضر راكبًا جواده سالًا سيفه محفوفًا بضباط السواري يحرسونه، فأمره الخديوي بإغماد سيفه والنزول إلى الأرض وإبعاد الضباط عنه ففعل..

الخديوي: ألم أكن سيدك ومولاك؟ ألست أنا الذى رقيتك إلى رتبة أميرلاي؟

عرابي: نعم.

الخديوي: لم حضرت بالجند إلى هنا؟

عرابي: لطلبات عادلة، وهى عزل وزارة رياض باشا، وتشكيل مجلس النواب، وزيادة عدد الجيش، والتصديق على قانون العسكرية الجديد، وعزل الشيخ العباسي.

الخديوي: هذه المطالب ليس من شأن الجند أن يطلبها.

المواجهة انتهت، والمشهد لم ينته.. ثم أشار القناصل على الخديوي بالرجوع إلى السرايا خوفًا مما عساه أن يعقب هذه المخاطبة مما لا يحمد عقباه، وتولى المستر كونفي المستشار الإنجليزي «في رواية كرومر اسمه كولفين» باقي الحوار مع عرابي..

كونفي: إن عزل الإدارة من خصائص الخديوي، وتشكيل مجلس النواب من شأن حقوق الأمة لا الجند، ولا ضرورة من زيادة عدد الجيش لأن البلاد آمنة ومطمئنة، وليس في الأمم من يريدها بسوء، أما التصديق على قانون العسكرية فسيكون بعد إطلاع الوزارة عليه، وأما عزل شيخ الإسلام فقد يحصل بعد بيان أسبابه.

عرابي: يا حضرة القنصل إن ما يتعلق بالأهالي من هذه المطالب لم ننهض إليه إلا بالنيابة عنهم فقد أقاموني نائبًا عنهم في طلبه وتنفيذه بواسطة هذه العساكر الذين هم أبناؤهم وأخوتهم، وأعلم أننا

لا نفارق هذه المكان ما لم تنفذ جميع هذه الرغائب التي أبديتها.
كونفي: تصرح بأنك تريد الوصول إلى ما تطلب بالقوة، وهذه هي الهمجية التي تجر الخطر إلى بلادك.
عرابي: وكيف ذلك من الذى يعارضنا في شئون داخليتنا؟
كونفي: وماذا تفعل لو لم تجب على طلبك؟
عرابي: أقولها عند اليأس والقنوط.
انقطع الحوار بينهما، وانضم كونفي إلى الخديوي داخل السرايا بمصاحبة باقي المستشارين والقناصل، وبعد ثلاث ساعات مشاورة بينهم.. اتفقوا على تنفيذ طلبات عرابي بالتدريج.
ملخص ما سرده الإمام في مذكراته «عرابي ذهب للقصر ممتطيًا حصانه.. عرابي مواجهة الخديوي
(٢)
كما كان لسانًا لعرابي ولثورته.. أصبح الآن لسانًا لتبرئته من التدليس..
كتب عبد الله النديم في مجلته الثورية «التنكيت والتبكيت» ص٣١٦ عن يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١، وعلى لسان عرابي في حفل أقيم بالشرقية عقب هذا اليوم احتفالًا بالنصر..
«تحركت فينا الحمية والغيرة الوطنية، فتعاقد أولادك في الجهادية على حفظ البلاد ووقاية أميرنا من كل سوء، وسرت بهذا الجيش، ووقفت بساحة عابدين، واشتدت شوكة جيش البغي وقويت معارضته.. هناك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالًا شديدًا، فجال صديقي الأعز الهمام صاحب الغيرة والعزم القوى السيد عبد الله نديم بين الصفوف ينادى «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله»، فكان معي ثاني اثنين في حفظ قلوب الرجال من الزيغ والارتجاف، وأخذ الكل يردد هذه الآية الكريمة، وكأنهم لم يسمعوها إلا من فمه في تلك الساعة»
صدر هذا العدد بعد الواقعة بأيام في مجلة النديم، وهذا ينفي أن عرابي اختلقها بعد عودته من المنفى أوائل أكتوبر ١٩٠١.



وفى كتاب يحمل سيرة عبد الله النديم للدكتور على الحديدي، وتحت عنوان «الزحف المقدس»..
كُتب.. يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١، وبعد أن اطمأن عرابي إلى أن الأمة قد استيقظت مشاعرها، وأنابته في مطالبها.. زحف على رأس وحدات من آليات الجيش في مظاهرة عسكرية إلى ميدان عابدين ليقدم إلى الخديوي باسم الأمة مطالبها، ولما وصل عرابي إلى عابدين حاصر الخديوي والظالمين، فنزل إليه الخديوي وناداه، فسعى إليه عرابي ولباه..
فقال له: لم جمعت حولي هؤلاء العساكر؟
عرابي: نطلب سقوط الوزارة جالبة الغمة، وفتح مجلس شورى للأمة، ووضع حدود للحاكم والرعية، وسن قانون لمعاش الجهادية.
الخديوي: هذا الطلب ليس من وظيفتك.. فلم تظاهرت بشيعتك؟
عرابي: لست أطلبه وأنا عسكري، بل أنا نائب هذه الأمة الواقفة.
(٣)
هو أحد الذين تربوا في المعية الخديوية، وشغل منصب سكرتيرا لنظارة الخارجية المصرية في عهد الخديوي توفيق، وبعدها سكرتيرًا خاصًا للخديوي عباس حلمي الأول، وكان شاهد عيان ليوم المواجهة..
دون أحمد شفيق باشا في الجزء الأول من مذكراته.. أن العرابيين أعلنوا القيام بمظاهرة في ساحة عابدين يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١، وقد أرسل عرابي إلى معتمدي الدول الأجنبية يخبرهم أن الجيش سيقوم بمظاهرة، وليس فيها أدنى تعرض لمصالح الأجانب، وحاول الخديوي منع نزول الآلاى السوداني إلى ميدان عابدين، ولكنه لم يفلح، ورأى شفيق الجيش قادمًا من جهة شارع عابدين، وقد اصطفت الجنود البيادة «المشاة» والسواري والطوبجية في أماكن بالميدان كانت مخصصة لكل سلاح من هذه الأسلحة، وقد منع عرابي الدخول والخروج من سراي عابدين، وتقدم عرابي راكبًا

جواده شاهرًا سيفه، وخلفه بعض الضباط، فنزل الخديوي إليهم من قصره غير مكترث لما قد يتعرض إليه من الأخطار، وكان معه السير كلفن المراقب والمستر كوكسن قنصل إنجلترا في الإسكندرية النائب عن معتمد إنجلترا، ولم يتبعه سوى اثنين من عساكر الحرس الخصوصي أحدهما حسن صادق، وكان ضخم الجسم، فلما رأى عرابي شاهرًا سيفه..
صاح به: اغمد سيفك، وانزل عن جوادك.
فامتثل عرابي لأمر الخديوي
الخديوي: ما هي أسباب حضورك بالجيش إلى هنا؟.
عرابي: جئنا يا مولاي لنعرض على سموك طلبات الجيش والأمة.
الخديوي: وما هي؟.
عرابي: إسقاط النظارة المستبدة، وتشكيل مجلس نواب جديد، وتنفيذ القوانين العسكرية التي أمرتم بها.
بعدها نصح المستر كلفن الخديوي توفيق باللغة الإنجليزية أن يعود للقصر، وبقى كلفن يفاوض عرابي، ولكنه لم يسمع له قولًا.. بعدها أشار كلفن وكوكسن بإجابة هذه المطالب لأنه لا حول ولا قوة له.

(٤)

لم يبخل علينا اللورد كرومر برأيه في هذه الإشكالية، وترك لنا مشاهده الخاصة عن هذا اليوم التاريخي، وأنصف عرابي لأول وآخر مرة عندما سجل هذا اليوم في يوميات أسماها «مصر الحديثة»، وفيها سار عرابي في ألفين وخمسمائة جندي وثمانية عشر مدفعًا إلى ميدان عابدين، ولجأ الخديوي إلى أفضل الحلول في ذلك الوقت، وهو استدعاء السير أوكلند كولفين ليقف بجانبه، وكولفين هذا خبير بمثل هذه الأمور حيث واجه مثل هذه المظاهرات في الهند عندما كان عضوًا في الإدارة المدنية بالهند قبل حضوره إلى القاهرة.
الأكثر إثارة في كتاب «كرومر» أنه نقل حرفيًا ما كتبه «السير أوكلند كولفين» من وصف عن هذه الواقعة، ويكشف لنا كواليس الطرف الآخر «طلب الخديوي مشورتي فيما يصنعه، فنصحته بأن يسبق خصومه في العمل، وما دام رياض باشا يزعم أن هناك آلايين مواليين له فعليه أن يستدعيهما إلى ساحة عابدين مع من يمكن جمعهم من رجال البوليس المسلحين، وأن يقف على رأس هذه القوة ويقبض بنفسه على عرابي فور حضوره، ولكنه أجاب بأن رجال المدفعية والسواري مع عرابي، وقد لا يحجمون عن إطلاق النار، فأجبته بأنهم لن يجرؤوا على هذا، وأيدني ستون باشا بحرارة، ووصل السير تشارلز كوكسن، وعبر هو الآخر عن موافقته على آرائي ثم رجع إلى الوكالة البريطانية ليبرق إلى لندن بما حدث..
ركبت عربة خلف الخديوي وركب الوزراء أيضًا، كما ركب خمسة أو ستة ضباط مصريون في عربة ستون باشا، وذهبنا أولًا إلى قشلاق عابدين حيث خرج آلاي الحرس يهتفون بأحر عبارات الولاء للخديوي، ثم استأنفنا السير إلى القلعة حيث رحب بنا الآلاي الموجود بها ترحاب آلاي عابدين، ولو أننا علمنا أنه كان يبعث قبل وصولنا ببعض الإشارات إلى آلاي عرابي بالعباسية».
استرسل كولفين في حكايته التي لا تختلف في تفاصيلها عن باقي الحكايات إلا فيما يخص الخديوي نفسه.. عندما اقترب عرابي ممتطيًا جواده وشاهرًا سيفه، وأمره الخديوي بالنزول من فوق الحصان، ونزل عرابي بالفعل، وأثناء اقترابه من الخديوي..

همس كولفين في أذنه: هذه لحظتك.
أجابه الخديوي «هامسًا»: نحن بين أربع نيران «يقصد محاصرون».
والتفت الخديوي إلى ضابط مصري يدين له بالولاء، ومال عليه يستقوي به، وكرر عبارته: ماذا يمكنني عمله؟ نحن بين أربع نيران ولا شك أننا مقتولون.
التفت الخديوي إلى عرابي، وسأله عن معنى حركته، فرد عرابي بأن الجيش المصري يصر على تحقيق مطالب ثلاثة «إسقاط الوزارة، ودعوة البرلمان للانعقاد، وزيادة عدد الجيش إلى ثمانية عشر ألف جندي»
عند ذلك تحول نظر الخديوي إلى كولفين قائلًا: هل سمعت ما يقول؟
فنصحه كولفين بالرجوع إلى القصر.
أكمل كولفين في وصفه « فرضخ لرأيي، وبقيت أناقش عرابي وحدي محذرًا من خطورة الموقف بالنسبة له ولأعوانه، وموضحًا ضرورة انصراف الجند قبل فوات الوقت، وبعد ساعة حضر السير تشارلز كوكسن ووقف بجانبي أثناء المناقشة، وبعد انتهائي من المناقشة استأنفها السير كوكسن مع عرابي والعصاة بعض الوقت، وانتهى الأمر بموافقة الخديوي على عزل الوزراء بشرط تأجيل المطلبين الباقيين إلى ما بعد الرجوع بشأنهما إلى الباب العالي، فوافق عرابي على هذا في الحال».
(٥)
لا يمكننا التأريخ ليوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ دون سماع شهادة الخديوي عباس حلمي الثاني ابن الخديوي توفيق، ومن مذكراته «عهدي»..
«أخذت الثورة تزأر ضد الحاكم في الأوساط العسكرية، ونسبوا إليه -إلي توفيق- التفضيل الزائد لعدد من الضباط من أصل جركسي الموجودين في الجيش، وكلفوا ضابطًا مصريًا، في رتبة أمير آلاى، ويسمى أحمد عرابي الحسني، والذى سيحصل سريعًا على شهرة حزبية بعمله الثوري، على أن يقدم للخديوي التماسًا بطلب طرد وزير الحربية عثمان رفقي باشا الذى كان من أصل جركسي .. قام عثمان رفقي وبتوجيه ماكر من الأجانب بخلق شقاق بين عناصر العسكرية، وباستدعاء عرابي وصاحبيه أميرى الآلاى - عبد العال حلمي وعلى فهمى - لكى يبلغهم بطردهم من الجيش، وتعيين ضباط جراكسة في أماكنهم، وأخيرا بالقبض عليهم بسبب موقفهم المتعارض مع القوانين والأخلاق العسكرية، وفى أثناء ذلك اتسع نطاق حركة التمرد، ونجحت الآلآيات الثلاثة التي كانت تحت قيادة الضباط الثلاث المعاقبين في أن تخرجهم من السجن..
تم عزل رفقي وزير الحربية، وتولى الوزارة بدلا منه محمود باشا سامى البارودي، ولم يأخذ الخديوي والدى هذا القرار نتيجة لضعف أو جبن بل كانت رغبته الوحيدة هي تحاشي وقوع حرب أهلية بدت له تهدد بعواقب وخيمة خاصة مع وضعها المالي المزعزع.. وأخيرا طلب الحزب العسكري وأعضاء الأعيان من الخديوي إقالة وزارة رياض وإنشاء البرلمان، وتكوين جيش من ثمانية عشر جنديًا طبقا لفرمانات سلطان الدولة العثمانية، والحقيقة أن هذا الالتماس كان إنذارًا نهائيًا، إذا ما أخذنا في الحسبان أنه تم تقديمه في قصر عابدين بواسطة عرابي نفسه، الذى ذهب إلى القصر على رأس آلاي بأكمله يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١، وتحت ضغط هذا الحدث الفظيع كان قنصل إنجلترا والمراقب المالي الإنجليزي في صندوق الدين موجودين بالصدفة في تلك اللحظة في قصر عابدين، وعين توفيق شريف باشا مكان رياض”.

(٦)

ترك للمكتبة التاريخية كتاب "التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا مصر" عن رحلته إلى مصر، ومعاصرته للثورة العرابية، وبسبب قربه من عرابي، ومن فرط الخدمات التي أداها للثورة أطلقوا عليه لقب "صديق العرابيين".. إنه المستشرق "ألفريد بلنت"..

سمع بلنت أحداث ٩ سبتمبر ١٨٨١ من عرابي نفسه، فدونها في كتابه، وأضاف إليها فقرة في منتهى الأهمية "إلى هنا تنتهى رواية عرابي، وهى متفقة في كل شيء مع المعلومات التي وقفت عليها من أوثق المصادر الرسمية فيما يختص بحوادث ذلك اليوم".

كان تحليل بلنت للمشهد العام بهذا التصور "لم يكن الدور الذى قام به الخديوي فيها ينطوي على شيء من البطولة، ولكنها كانت في الحقيقة مسألة جبن عادى أكثر مما ترينا الروايات الأجنبية الرسمية، وكان الخديوي يعرف أنه لا خطر علينا من الجنود وهم لم يطلبوا إليه شيئًا لم يكن موافقًا عليه أو كان يتعذر عليه أن يعد بقضائه، ولكنه كان يتردد بين الطرفين بغية الانضمام إلى الفائز، وكان مسلكه هذا من الغموض بحيث لم يفهمه كلفن ولا كوكسن"..



ألفريد بلنت مع زوجته في زيارة عرابي بعد عودته من المنفى

(٧)

وفى كتاب "أيام لها تاريخ" للكاتب الكبير أحمد بهاء الدين.. كُتب أن عرابي وقف على رأس الجيش المصري في ساحة عابدين، ووقف أمامه توفيق ووراءه ثلاثة من الإنجليز، أوكلن كلفن المراقب وكوكسن قنصل إنجلترا في مصر والجنرال جولد سميث مراقب الدائرة السنية، وتحت أبصار آلاف المواطنين الذين احتشدوا خلف الجيش.. الرجال والأولاد، والنساء على أكتافهن الأطفال.. تحت أبصار هؤلاء جميعًا دار الحوار التاريخي بين عرابي والخديوي..

- ما سبب حضورك بالجيش إلى هنا؟

- جئنا يا مولانا نعرض عليك طلبات الجيش والأمة، وكلها طلبات عادلة.

- وما هي هذه الطلبات؟
- هي إسقاط الحكومة المستبدة، وتشكيل مجلس نواب على النسق الأوروبي، وإبلاغ الجيش إلى العدد المعين في الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التي أمرتم بوضعها.
- كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي وما أنتم إلا عبيد إحساننا.
- لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثًا وعقارًا، فوالله الذى لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم.

* * *

اختلفت المصادر في بعض تفاصيل الواقعة، ولكنهم اتفقوا جميعًا على الواقعة وأحداثها، وبعض المصادر تكاملت ليظهر لنا المشهد كاملًا، وليثبت لنا أن عرابي لم يكذب ولم يتجمل.

من حكايات الجدات

(١)
رد صديق على حكاية لي نشرت على الفيس: هذه الحكاية كانت تحكيها لنا جدتي ونحن صغار.
فتواصلت معه على الخاص وسألته: وهل كانت جدتك تجيد القراءة والكتابة؟.
قال: لا.. جدتي كانت من بنات الصعيد، وفى مجملهن كن أميات لا يقرأن ولا يكتبن.
سألته: وكيف عرفت جدتك حكاية جرت منذ أكثر من مائتي عام دون قراءة؟.
قال: جدتها كانت مصدرها.. سمعتها منها وهى صغيرة.
حكايات الجدات أقدم طرق تداول التراث، وأهمها على الإطلاق، وأولها في حياتنا الثقافية، وبداية طريقنا نحو المعرفة والتعلم.. من حكيهن المتوارث تعرفنا على الأمثال وحكاياتها، والحكم وفلسفتها، والعادات وطرقها، والتقاليد ومنهجها، والسياسة وألاعيبها، والفنون وفطرتها، والألعاب وعفويتها..
تعلمنا منهن كيف عاش السابقون، وكيف تميزوا، وكيف عانوا..
منهن تعلمنا أن أشجع «ولد» في العالم كان مصريًا، وأن الاحتلال «مدخلش» قنا، وأن الذوق «مخرجش» من مصر، وحكايات أخرى لا تحصى..
كن خير رُسل لحفظ التراث.. حافظن بحكيهن على ما ورد في الكتب، وما لم يرد فيها، وحافظن على ما نقش على جدران المعابد، وما لم ينقش عليها.
(٢)
دار حواري السابق مع الصديق بعد نشري لحكاية «أشجع ولد في العالم»، وهي حكاية وردت في تاريخ الجبرتي، وفى رحلة الوجه البحري ومصر العليا أثناء حرب بونابرت للمؤرخ الفرنسي فيفيان دينون، وبونابرت في مصر لكرستوفر هيرولد، وفى تاريخ الحركة القومية للرافعي، وغيرها من المصادر، جميعها تحدثت عنها، وفى تفاصيلها تأملوا المشهد.. استهلكت أيامًا للقراءة والاطلاع والمقارنة بين الروايات في شغف، واستهلك صديقي ساعة زمن قبل النوم في ليلة شتوية، ومتدثرًا بغطائه، وبجواره جدته العزيزة التي لا تجيد القراءة.. تحكي له ما سمعته من جدتها عن ابن الصعيد الشجاع.. مفتخرة بجذورها الجنوبية، ومعلمة لحفيدها المعنى الأمثل للوطنية، ومساعدة له على استدعاء النوم..
حافظات التراث.. سلام على أروحهن.



حادثة القناص (كما رسمها في حينها المسيو فيفان دينون)

في روايات المصادر والجدة.. عسكر الجنرال ديزيه في قرية الفقاعي بمركز ببا محافظة بنى سويف، وأرسل إلى القيادة العامة للحملة يطلب مددًا من المدفعية لمطاردة مراد بك، وغزو الصعيد، وفى نهار يومهم الأول بالقرية نكلوا بالأهالي وشردوهم، واستولوا على خيرات القرية.. في مساء ليلتهم الأولى بالمعسكر لاحظ الجنرال الفرنسي اختفاء بعض الأسلحة، وفى الليلة التالية اختفت كمية أخرى، فأمر بتشديد الحراسة والمراقبة على المعسكر.. في الليلة الثالثة تسلل «ولد» صغير إلى مكان نوم أحد الجنود، وحمل سلاح الجندي النائم، واستعد للهروب.. رآه جندي آخر وطارده حتى قبض عليه بعد أن أصابه بالسيف في ذراعه، وحُمل إلى القائد ديزيه ليستجوبه في حضور ترجمان من أعوان المعلم يعقوب..

- لماذا تسرق أسلحة الجيش الفرنسي؟
- لأنها أسلحة أعداء بلادي.
- من حرضك على هذه الجريمة؟
- ألهمني الله أن أفعل ما فعلت.

ثم خلع الفتى غطاء رأسه "الطاقية"، وأعطاها للجنرال، وطلب منه أن يبت في أمره.. أراد ديزيه أن يختبر شجاعته، فأمر بإعدامه، وبدلًا من أن يبكي الفتى أو يطلب العفو.. رفع نظره إلى السماء، وتمتم بآيات من القرآن، واستسلم لمصيره.. كتب دينون وهو شاهد عيان على الواقعة "ظل طوال الوقت هادئًا هدوءًا عجيبًا، وأبدى قوة خلق نادرة"، فاستبدل ديزيه الإعدام بالجلد ثلاثين جلده.. تحملها الغلام ولم يتأوه أو يصرخ..

بعد انتهاء حكم الجلد قال له ديزيه: يا بني.. سأكتب في تقريري اليوم إنني قابلت أشجع ولد في صعيد مصر.. بل أشجع ولد في العالم.

وذكر فيفيان دينون في كتابه "عمره يتراوح بين الثامنة والعاشرة، وهو حلو الصورة، ولو أتيح له بعض التعليم لتقدم كثيرًا".

لم تأخذ حكاية الولد "عبد الستار آدم الفقاعي" من الذاكرة الشعبية إلا صفحات نادرة من كتب المؤرخين للحملة، وحكايات جدات القرية القدامى، والتي ربما لا تتجاوز حدود القرية في الحكي.. مقارنة بحكاية تمثال الطفل غير المهذب الذى قيل إنه تبول على أعداء بلاده، فعشقته بلجيكا بالكامل.

(٣)

"الاحتلال مدخلش قنا".. جملة تحولت إلى مثل شعبي في قرية نجع البارود، والفضل لحكايات الجدات للصغار في جلسات السمر، وحكايات قبل النوم.. ردد الصغار الحكايات، وتناقلوها جيلًا بعد جيل، وهى تتماهى مع الحكاية السابقة، وتستكمل الحكي الشعبي - المؤرخ- لكفاح أبناء الصعيد ضد الحملة الفرنسية على مدنهم المسالمة..

ما من شاب في قرية نجع البارود إلا وفى ذاكرته عشرات الحكايات المثيرة لكفاح أجدادهم ضد الحملة الفرنسية، وإن استفسرت منه عن مصدر الحكايات.. قال لك كانت تُحكى لي من جدتي عندما كنت صغيرًا.

الاحتلال مدخلش قنا..

في مشهد يفوق ببطولته وروعته المشاهد السينمائية التي جسدتها هوليوود على شاشاتها للحرب العالمية الثانية.. انتصر الثائرون العزل على جنود نابليون ومعداتهم الأكثر حداثة في العالم في ذلك الوقت، وألحقوا بالفرنسيين أكبر هزائمهم في معركة واحدة..
خمسة آلاف جندي فرنسي، وأسلحة وذخائر ومدفعية حديثة، واثنتا عشرة سفينة حربية تتقدمها سفينة نابليون الخاصة السفينة إيتاليا.. هي كل قوة الجنرال ديزيه التي تحركت لاحتلال الصعيد، ومطاردة قوات مراد بك.. في منفلوط انضم لهم ألف ومائة جندي أرسلهم نابليون كدعم..
أول المعارك في قرية سمهود أسفرت عن هروب مراد كعادته السيئة، وفى قرية الصوامعة قتل الفرنسيون ألف مواطن بحجة دعمهم لقوات مراد بك، جاء الانتقام سريعًا بالقرب من شاطئ نيل قرية نجع بارود بقنا في ٣ مارس ١٧٩٩..
كانت خبرة الأهالي في نجع بارود تخبرهم أن نهر النيل في شهر مارس ينحدر ناحية الشرق بشكل حاد، وهو ما يجبر السفن على الالتزام بخط سير معين دون مناورة، فتجمع أبناء القرية وأبناء القرى المجاورة، وانتظروا مرور السفن في مياههم..
مع دخول أول سفينة حربية في المشهد.. نزل للمياه كل من يجيد السباحة والغوص، ونزل آخرون لا يجيدون السباحة بجيادهم وماشيتهم، وقاموا بثقب السفن، وكسروا جدرانها القريبة من المياه، وعندما حاول القبضان ميرندى الانسحاب.. جنحت السفن بفعل الانحدار الشديد، وغرقت نتيجة دخول المياه إليها من الثقوب، وتقاتل الأهالي مع الفرنسيين الذين حاولوا الفرار بالسباحة في النيل، فقتلوهم وأغرقوهم.



صعد الأهالي على متن السفينة إيتاليا، واشتعلت النار في مستودع البارود، فنسفت السفينة نسفًا، وتفجرت شظاياها على الشاطئ.. استشهد من أبناء القرية والقرى المجاورة مائة وعشرون شخصًا، وبلغ عدد قتلى الحملة الفرنسية في هذه المعركة خمسمائة قتيل، وغرقت كل سفنهم بمعداتها.
في ذلك الوقت كان نابليون يقود حملة على سوريا، وتلقى رسالة في محتواها الهزيمة الثقيلة لحملته على مصر، فتملكه التشاؤم من خبر غرق السفينة إيتاليا، وتوقع أن تخسر فرنسا سيطرتها على إيطاليا التي كانت تحتلها لتشابه اسم السفينة وإيطاليا، وقال جملته الشهيرة "إن فرنسا فقدت إيطاليا.. إن شعوري لا يكذب".

شهر مارس، وأبناء الصعيد، وسفن احتلال، وسباحة في النيل واشتباك.. أوجه تشابه بين ما حدث في قرية نجع البارود بقنا ٣ مارس ١٧٩٩، وبين ما حدث في بلدة شلش مركز ديروط بأسيوط ٢٤ مارس ١٩١٩.. مائة وعشرون عامًا تفصل بين الحدثين، ولا يفصل بينهما سيناريو، وكأن الزمن استنسخ حدث عام ١٧٩٩، وأعاده بطريقة كلاكيت تاني مرة عام ١٩١٩.
في أسيوط وأثناء ثورة ١٩.. تجمع الجنود الإنجليز، ومعهم نزلاء أجانب عددهم ١٤٦ شخصًا، واحتموا في مدرسة من غضب الثوار، وتبادلوا إطلاق النار معهم، وأرسلوا إلى قيادتهم العامة في القاهرة يطلبون جلاءهم عن المدينة الغاضبة.. سارت النجدة الإنجليزية مسرعة من القاهرة إلى أسيوط بسفينة نيلية، وطائرتين حربيتين، وفى طريق الذهاب كانت المقاومة لا تنتهي.. عندما اقتربت السفينة من بلدة شلش بمركز ديروط نزل الآلاف من الثوار إلى النيل بالعصي والشوم والبنادق القديمة يحاولون الاستيلاء على السفينة، ولكن السفينة قاومت بشدة وفرت من أيدى الثوار بعد أن تكبدت خسائر في الأرواح والأسلحة، وأعاد المحاولة ثوار آخرين جنوب القرية، وفرت السفينة للمرة الثانية، وزادت خسائرها، وهجم الثوار للمرة الثالثة عند قرية نزالي جنوب، فهربت السفينة بعد أن استنزفها الثوار بكثرة محاولاتهم، ووصلت إلى أسيوط محملة بالجرحى والقتلى، وكان من القتلى قائد السفينة كولونيل هيزل.
(٥)
كلما كانت تطلب مني طلبًا وألبيه.. تبتسم شاكرة، وتقول لي: فعلًا.. الذوق مخرجش من مصر، ولم يعنيني في جملتها سوى كلمة الذوق، فأبتسم بدوري راضيًا وأنصرف، وبعد مرور الوقت يتكرر بيني وبينها المشهد.. تطلب مني طلبًا وألبيه، فتبتسم شاكرة، وتقول لي: فعلًا.. الذوق مخرجش من مصر، وبعد استمرار تكرار المشهد بيننا.. أثارت في نفسي الفضول، وقررت أن أفهم ما المقصود بالجملة.. اقتربت منها، وهى جالسة على الأرض بجوار "وابور الجاز أبو شرايط".. لزوم التدفئة، وإعداد مشروبها المفضل.. الشاي، واتخذت وضع الجلوس على الأرض.. وسألتها: جدتي.. ما معنى الذوق مخرجش من مصر؟.
قالت: الذوق ولى من الأولياء الصالحين.. كان طيبًا ومحبوبًا وخدومًا، ومساعدًا للفقراء والضعفاء، وعندما قرر الهجرة.. حزن على فراق أهله، فمات على باب المحروسة، ودفن بجوارها.
انتهت حكاية جدتي.



ضريح الذوق

كاميرا - مصطفى شريف

للكـاتبة الـكبـيـرة فتحيـة العسـال مسلسل إذاعـي بعنـوان "حسن الذوق" إنتاج عام ١٩٦٨، والذوق في المسلسل صائغ بالصاغة.. أمين في تعاملاته، ومحب للناس، ورأس ماله السمعة الطيبة، وبشاشة الوجه، ولسانه الخلوق، وكان عرضة لمؤامرات محمود الأورفللي الصائغ الثري الذي على النقيض تمامًا من حسن الذوق.. تزوج الذوق من ياسمين ابنة السيد أحمد حسين تاجر بين الصورين.

بعيدًا عن الدراما الإذاعية.. اتفقت المصادر على أن الحكاية تعود إلى عصر المماليك في مصر، وكان الذوق.. تاجرًا في منطقة الحسين، واسمه حسن الذوق، والذوق هنا صفة تميزه وليست لقب العائلة.. في هذه الفترة كان يلقب الأشخاص بالصفات التي عرفوا بها.. مثلما حدث مع محمد بك أبو الدهب، فالدهب في اسمه صفه تميز بها لأنه نثر على الناس ذهبًا فرحًا بتوليه ولاية مصر.

نعود للذوق.. كان كريمًا ومحبوبًا من الجميع، وكثيرًا ما كان يتدخل لفض نزاعات الفتوات، ويصلح بينهم، ولكنه فشل ذات مرة في ما كان ينجح فيه سابقًا، وتطور النزاع بين الفتوات إلى صراع دموي، وغضب منهم الذوق، وقرر هجرة الحي بأكمله عقابًا لهم على تجاهل قيمته، وعندما اقترب من باب الفتوح حاملًا متاعه.. سقط ميتًا بفعل حزن الفراق، فتجمع محبوه، ودفنوه في مكان سقوطه يمين باب الفتوح من الداخل، ووضعوا على قبره الصغير تعريفًا له "ضريح العارف بالله سيدى الذوق"، وعاد بعده الفتوات لنزاعهم المستمر، وكلما تطور النزاع، وقبل أن يصل لصراع دموي.. يصرخ فيهم أحدهم "يا جماعة عيب.. ده الذوق مخرجش من مصر" بمعنى أن الذوق مدفون بيننا، فتهدأ الأمور، ويعم السلام، وقيل إن هذا من كراماته، ورفعوه لدرجة أولياء الله الصالحين..

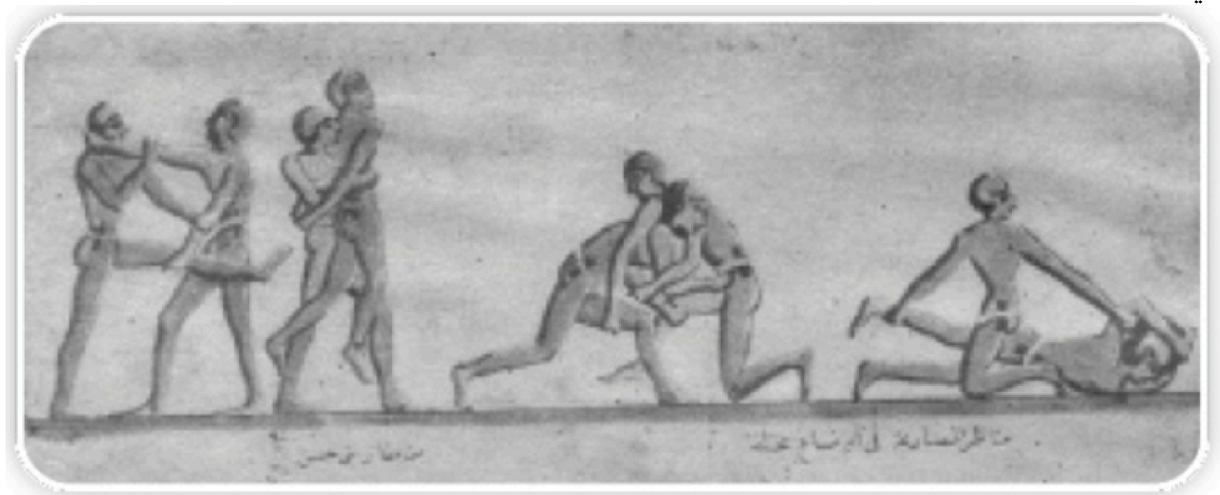
الفوتبول

(١)

صورة البازل بدون قطعة لا تكتمل، والمشهد العام لمصر في فترة زمنية معينة أشبه بلعبة البازل.. لا يمكن فيها الاستغناء عن قطعة ليكتمل المشهد، والرياضة في المشهد قطعة لا يمكن تجاهلها، وتكتمل صورة مصر في العصر الحديث بوضع القطعة في مكانها، وبجانب باقي القطع الأخرى السياسية والفنية والاجتماعية، وفى الفترة الزمنية التي يدور في فلكها الكتاب.. لا غنى عن هذه القطعة.

(٢)

قبل أكثر من مائة وثلاثين عامًا، وقبل الاحتلال البريطاني.. كانت الألعاب الرياضية الشعبية في مصر متوارثة من المصريين القدماء.. فيها الروح المحلية، وفيها الطابع المصري، وهى نفس الألعاب التي سجلها القدماء على أركان مقابر بني حسن بالمنيا منذ أكثر من أربعة آلاف عامًا، وتحديدًا ما بين فترتي حكم الأسرة الحادية عشرة في عهد منتحوتب الثاني، والأسرة الثانية عشرة في عهد سبك نفرو..



منها على سبيل المثال لا الحصر لعبة "المصارعة الحرة" المسجلة بثلاثمائة وتسع وثلاثين صورة في مقابر بني حسن، ولعبة "هاتو هاتو" التي تحولت إلى لعبة "كرة اليد"، ولعبة المبارزة بالسيف التي تحولت إلى "سلاح الشيش"، ولعبة أشبه بالجمباز في تقنياتها، ولعبة "الحُكشة" التي كانت تُلعب بجريد النخيل، وتحولت عالميًا إلى لعبة الهوكي، وعن هذه اللعبة ذكر أحمد الصباحي في كتابه "المهارات والألعاب الشعبية: فرعونية ريفية مصرية" إن العكش أو الحُكشة لعبة مصرية كان يلعبها الفلاحون في عهد أمنمحات الثالث، وظل الأطفال في شوارع القرية يمارسونها بكثير من البهجة، وكانت تسمى في قرى وجه بحرى لعبة العكش أو البو، وفى القاهرة والوجه القبلي كانوا يسمونها لعبة الحُكشة، ومن مميزات اللعبة أنها تساعد على تقوية الذراعين ومرونة الجسم وتنمى سعة الحيلة لدى اللاعب، وكُتب عن أصل لعبة الهوكي في موقع.. fieldhockey.isport.com "اللعبة في نسختها البسيطة الأولى تعود إلى رسومات قديمة عمرها أربعة آلاف عام وجدت في مقابر بني حسن".


لعبة الحكشة

(٣)
ظل المصريون المحدثون أمناء على ألعاب الأولين.. مارسوها كما توارثوها بقواعد بسيطة، وأحيانا بدون قواعد دون أن يضيفوا شيئًا، وأصبحوا همزة وصل بين المنحوت على معابدهم، وبين عالم حديث تلقى الألعاب وطورها وقننها حتى عادت إلينا في صور تقترب من المظهر والمضمون، وللحق أن هذه الألعاب أصيبت بركود لعدم تطورها آلاف السنين، ونالت الهزلية بعضها لعدم تطويعها للعصور اللاحقة. هنا يكفي أن نستشهد بما كتبه أنطوني برتميلي كلوت المعروف بـ كلوت بك في "لمحة عامة إلى مصر" قبل عام ١٨٦٨، حيث ذكر أن المصارعين يتجردون عادة من ثيابهم بحيث يبقى النصف العلوى لأجسامهم عاريًا، ويدلكون هذا النصف بالزيت ثم يتظاهر كل مصارع بأنه يحاول التغلب على خصمه بطرحه على الأرض، ولكن الذين يشهدون هذه المصارعات ممن يفهمون معنى النشاط واليقظة والحيلة ويقدرونها قدرها، ويعتقدون توافر هذه المزايا في المصارعين الأوروبيين لا يسعهم النظر إلى تلك الجهود إلا بعين الازدراء والتهكم والاحتكار.
ما كتبه كلوت بك يعيد إلى الأذهان مشاهد هزلية من فيلم "السيرك"، حيث يتغلب الفلاح بفطرته على ما يجيده صاحب السيرك المحترف، والغلبة هنا للأقوى وليس للمحترف صاحب الخبرة..

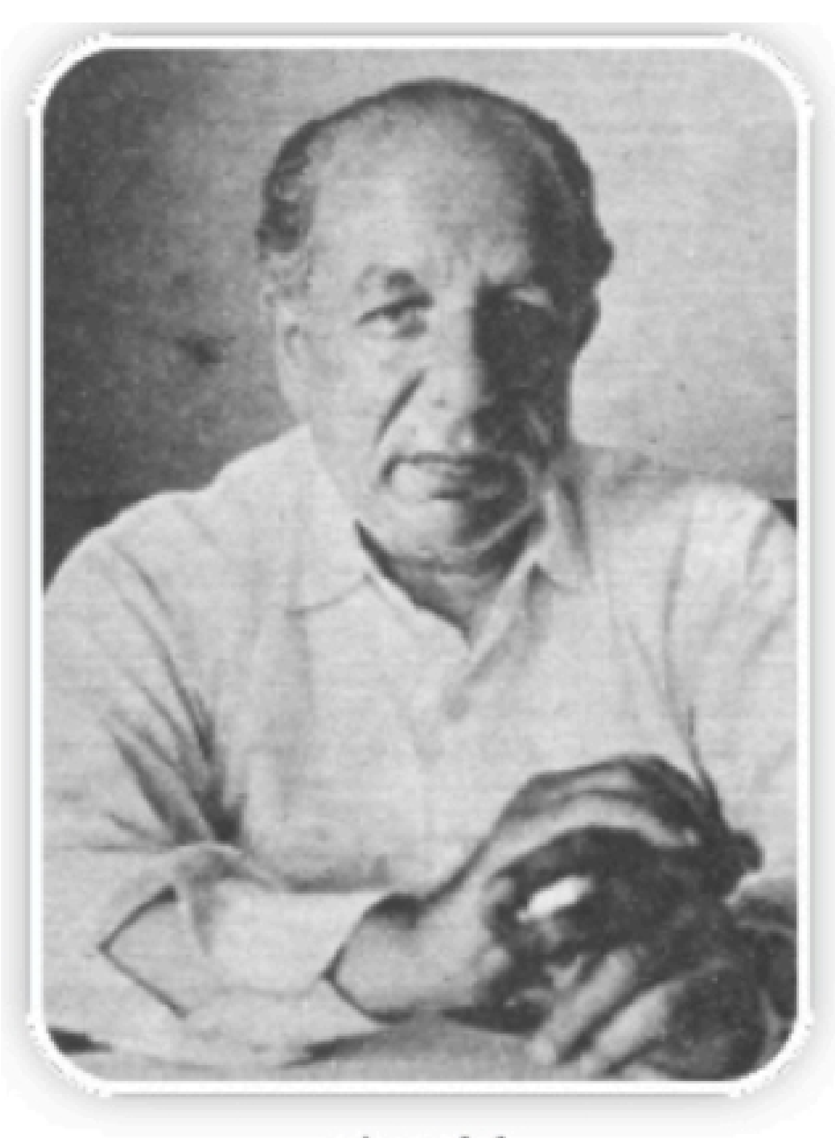
المشهد هزلي بما تحمله حروف الكلمة. الركود الذي أصاب الرياضات المصرية القديمة أكثر هزلية، فكان ولابد من أيادي تنتقي ما توارثناه، وتعيد إليها نضارتها، وتغلفها في شكل ألعاب أوليمبية تستفيد منها الإنسانية، وهو ما حدث من مندوبي دول إنجلترا وأمريكا وألمانيا والمجر والسويد وروسيا وإيطاليا عندما اجتمعوا بعد انتهاء دورة الألعاب الأولمبية التي أقيمت في أثينا عام ١٨٩٦ للتشاور حول الألعاب التنافسية في الدورة التالية بباريس، واستقروا جميعًا على الاستعانة بالألعاب التاريخية الخاصة بالقدماء المصريين والهنود واليونانيين.. لهذا خُلق التدوين والتراث.

(٤)

عام ١٨٨٢ احتلت بريطانيا مصر، والاحتلال كما تعودناه احتلالًا اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا وثقافيًا، ومن مظاهر الاحتلال انتشار ثقافة المحتل بما في ذلك ثقافته الرياضية وطمس ثقافة المحليين بما في ذلك ثقافتهم الرياضية، فطمسنا ألعابنا المتوارثة، وقايضناها بلعبة الفوتبول المستوردة من بريطانيا مبتكرة اللعبة، وظلت الفوتبول مسمى لصيقًا باللعبة حتى نهاية الثلاثينات "شاهد الفيلم المصري شالوم الرياضي" قبل أن يتم تعريبه بترجمته الحرفية لعبة "كرة القدم" في الأربعينيات.. كما استوردنا مع اللعبة تعصب صانعيها، وأصبح لنا ملف في شغب الملاعب ينافس التاريخ الأسود لشغب الملاعب في بريطانيا مبتكرة اللعبة، والمعروف بالمرض البريطاني.

(٥)

عن بدايات اللعبة في مصر يخبرنا "إبراهيم علام" أول ناقد رياضي في مصر، والأب الروحي للصحافة الرياضية، والمعروف بـ جهينة في مذكراته أن لعبة "الفوتبول" عرفناها بعد أن أصبح نظار المدارس الأميرية إنجليز معينين من السلطات البريطانية بعد الاحتلال، فاحتضن هؤلاء النظار لعبتهم المفضلة، وأغروا بها الطلبة وشجعوهم، واهتمت الدولة باللعبة، وقررت مادة التربية البدنية مادة أساسية عام ١٨٩٦ لمواكبة متطلبات اللعبة من لياقة بدنية، وانتشرت أكثر بعد أن نقلها المصريون العاملون في قوات جيش الاحتلال البريطاني للشارع المصري، ولمع في هذه الفترة نجم اللاعب محمد أفندي ناشد العامل بورش معسكرات الجيش الإنجليزي في العباسية، والذى كان رائدًا مصريًا لهذه اللعبة، وطغى اسمه، وتحدث معاصروه عن مهاراته الفردية الفريدة في التعامل مع الكرة، والتي تشبه السحر، وقلده الصبية والأطفال في الشوارع، وحاكوا طريقته في اللعب، وأصبح قدوة لعشاق اللعبة، فزادت شعبية ناشد شعبية اللعبة..



إبراهيم علام

ظلت الإشكالية الأولى للمصريين مع الفوتبول ارتفاع أسعار الكرة والحذاء، ووصل سعر كل منهما إلى جنية مصري، وهو مبلغ لا يستهان به في ذلك الوقت، ولا يقدر عليه سوى المتيسرين ماديًا، فاضطر بعض المصريين إلى شراء الكرة ومستلزمات اللعبة المستعملة "السكند هاند" من العاملين بالمعسكرات الإنجليزية بأقل من نصف سعرها، ولأن الحاجة أم الاختراع ابتكر مهاويس الكرة "الكرة الشراب"، وهى كرة صغيرة كانوا يصنعونها من الجوارب القديمة بطريقة حشو الجزء الأسفل المسدود بقصاصات قماش إلى أن تتحول إلى كروية الشكل، ثم يقلب عليها الجزء الأعلى من الجوارب طبقة بعد أخرى، ويحاك طرف النهاية بخيط لتصبح كرة صالحة للعب بها، والكرة الشراب كانت أول تحايل مصري على هذه اللعبة لممارستها، وكم من أسر مصرية اشتكت من فقدان جواربها من حبل الغسيل بسبب جنون صناعة الكرة الشراب، ولعبة الفوتبول. (٦)

أول مباراة فوتبول شاهدها إبراهيم علام، وهو في سن العاشرة من عمره "عام ١٩٠٠" عندما ذهب مع زملائه الطلبة إلى حي باب سدرة بالإسكندرية لتشجيع فريق مدرسته "سعيد الأول" الذى لعب ضد فريق مدرسة "إبراهيم الأول" في مقر المدرسة الثانية، وشاهد كرة كبيرة وغريبة بين أقدام اللاعبين تقفز لأعلى وتهبط على الأرض ليتناولها لاعب آخر ويضربها بحذائه فتعود إلى الفضاء، وكان هذا شيقًا و غريبًا على الحاضرين، واشتد التشويق بمغازلة "ترقيص" لاعب لآخر، واحتكاك لاعب بآخر، وسرعة الكر والفر بين الفريقين، وكان إذا أصيب لاعب - ولابد أن يصاب كل لاعب- يجرى ليبحث عن حفنة من تراب الأرض ليضمد بها جرحه، وبعضهم كان يحمل معه القليل من البن ليلقيها على الجرح، ويعود ويستكمل المتبقي من المباراة كأن شيئًا لم يحدث، ويعد هذا الإسعاف البدائي هو التحايل الثاني بعد الكرة الشراب، وتطويع اللعبة طبقًا لثقافة وفكر المصري.

(٧)

قبل إنشاء الأندية المصرية ظهرت فرق مصرية تنافس بعضها في الشوارع والحواري، ومنها في الإسكندرية "الفريق الظريف" و "الفريق الجميل".. الفريق الظريف كانوا من لابسي الجلاليب، وسموا أنفسهم بالفريق الظريف لأنهم يخلعون جلابيبهم عندما يصلون إلى ملعب المباراة، ويلعبون بـ "الكلاسين" وحفاة، والفريق الجميل كانوا يخلعون الجواكيت ويشمرون البنطلونات، ويلعبون بأحذيتهم العادية، وسموا أنفسهم بالفريق الجميل لأنهم من الأفندية المعجبانية "شايفين نفسهم". كان اللعب

في محرم بك يتخلله استراحة لشرب الليمون والأزوزا، ولأن لعب الشارع لم يعترف بقوانين اللعبة كثيرًا ما كانت تنتهي المباراة بـ قميص ممزق، وبنطلون متسخ، وحذاء تطل منه بعض الأصابع، ووجوه خارجة من معركة ملاكمة، ولو حدث ومرت المباراة بسلام بدون أي إصابات كان ينتظر اللاعيبة بعض "الصيع".. يسرقون منهم الكرة والليمون والأزوزا وأخشاب المرميين والملابس والنقود، وبخلاف فرق الشوارع ظهرت فرق شعبية صغيرة أكثر تنظيمًا، وأكثر مواكبة لقوانين اللعبة، وسرعان ما تحولت إلى فرق شعبية كبيرة.. منها على سبيل المثال فريق حسين حجازي، وفريق "النجمة الحمراء" الذى كونه على مخلص الباجوري الموظف البسيط بجمرك الإسكندرية، وفريق "الاتحاد الوطني" الذى كونه اللاعب الشهير حسن رسمي، وفريق "زهرة الألعاب" الذى كونه اللاعب حودة شقيق حسن رسمي، وحودة لاحقًا سيكون الجناح الطائر للمنتخب الوطني في دورة باريس الأولمبية عام ١٩٢٤.

(٨)

عام ١٩٠٠ وما قبلها لم تتأسس في مصر أندية رياضية كبيرة تهتم بالفوتبول، فنادى الجزيرة الذى تأسس عام ١٨٨٢، وبدل اسمه بعد مولد الأمير فاروق إلى نادى أمير الصعيد فاروق.. لم يؤسس فريق فوتبول، وكذلك النادي الاجتماعي سبورتنج الذى تأسس عام ١٨٩٠ لم يهتم باللعبة.. أما "نادى السكة" فكان أول الأندية التي تأسست خصيصًا لممارسة الفوتبول عام ١٩٠٣، وشارك في تأسيسه عدد من المهندسين الأجانب العاملين بعنابر ورش السكة الحديد، واتخذوا من شبرا مقرًا لهم..

(٩)

نادى خرابة وابور المياه..


عباس حليم والباجوري

انتشرت الفوتبول في القاهرة والإسكندرية، وتكون في القاهرة فريق يحمل اسم رائده حسين حجازي، وفى الوقت نفسه تكون فريق بالإسكندرية رائده هو اللاعب السكندري على مخلص الباجوري، ولكنه لم يطلق اسمه على الفريق بل اختار له اسم "النجمة الحمراء"، واستأجر غرفة بأحد المباني القديمة كمقر للفريق، فكان فريق النجمة الحمراء هو اللبنة الأولى لأول كيان مصري خالص.. تلك البداية لم تكن مرضية لحلم الباجوري، فالحلم لم يكن تأسيس نادى في غرفة مؤجرة فقط.. بل نادٍ له ملعب خاص به، فطرأت له فكرة سرعان ما بادر إلى تنفيذها.. كان موظفًا بالجمرك، وعرض على مدير الجمارك أن يحول "النجمة الحمراء" إلى نادٍ للموظفين، ووافق المدير على الاقتراح، واختار الباجوري مقرًا للنادي أرضًا خربة على تلال الحضرة بجوار وابور المياه، وعمل الفريق على نظافة المكان وتسويته.. حتى أصبح أرضًا ممهدة، وسرعان ما أصبح للأرض سور ومرميان من الخشب، وامتد نشاط نادي الموظفين، واشترك في بطولة الإسكندرية

من مهدها، كما اشترك في الكأس السلطاني ثم كأس مصر، وكان يطلق عليه في هذا الوقت "نادى خرابة وابور المياه"..

في ذلك الوقت كان النبيل عباس حليم مقربًا من الحركات العمالية، وصديقًا شخصيًا لـعلى مخلص الباجوري.. أراد النبيل أن يشارك الموظفين حلمهم الخاص باتساع ناديهم الوليد، فبحث عن قطعة أرض تصلح لهذا الغرض، ودون في مذكراته انه وجد عام ١٩٢٤ أرض فضاء في محرم بك تصلح لإقامة نادٍ وطني عليه، والأرض كانت مملوكة للدولة، فلجأ لوزير المالية، ودار بينهما حوار بعد أن شرح النبيل الغرض من زيارته للوزير..

- يعنى أفندينا عايز يعمل ناديًا للأطفال؟

- أطفال!!.. لا.. نادى للرجال للعب الفوتبول.

- نادى للرجال يا أفندينا!!.. هل هذا معقول!!.. أتريد الرجال من أصحاب العيال يلعبون شبه عرايا في الشوارع؟.. يا أفندينا الرجال يذهبون مثلا إلى المقاهي يلعبون الطاولة والدومينو.

- أنا متأسف جدًا يا معالي الوزير.. الحق إني ضيعت وقتك.. السلام عليكم.

وعندما جاء محمد محمود باشا وزيرًا للمالية في الوزارة الجديدة.. زاره النبيل عباس حليم، وحكى له ما دار بينه وبين الوزير السابق، ورحب الباشا بالفكرة، ومنحه الأرض لإقامة النادي إذا كان يراها مناسبة.

استغل تاجرًا يونانيًا في محرم بك خلو الأرض من سلطة الحكومة بعد أن منحتها لإقامة النادي، وتحالف مع رجل إيطالي، واحتمى الاثنان بالامتيازات الممنوحة للأجانب، ووضعا يدهما عليها مدعومين بسلطة القناصل الأجانب، وأقاما في الأرض كوخًا خشبيًا، ورفعا عليه العلم اليوناني، ووضعا في داخل الكوخ منضدة ومقاعد، وكانا يقضيان النهار في الكوخ يمنعان أي شخص من الاقتراب من الأرض.



أحمد سالم ومحمود حودة
وسيد حودة ومحمود سالم

وعبثا حاول النبيل أن يفهمهما أن الأرض مخصصة لإقامة نادٍ، ولكنهما أصرا على أن الأرض ملكهما لا حكومة ولا دياولو، فاتفق النبيل مع أعضاء فريق الباجوري على الالتقاء مساء بجوار قطعة الأرض، واقتحموها، وحطموا الكوخ الخشبي، وألقوا أثاثه في الخارج، ووضعوا أساس النادي رغم أنف الحماية والامتيازات والقناصل.
اختير عام ١٩٢٨ ثلاثة من لاعبي فريق "وابور الخرابة" وهم أحمد سالم ومحمود سالم وعبد الرحمن سامى، للمشاركة ضمن الفريق المصري للفوتبول بالدورة الأولمبية التي أقيمت في مدينة

أمستردام، وبعد الدورة اختير الظهير أحمد سالم واحدًا من أفضل أحد عشر لاعبًا في العالم، وأطلقت عليه الصحافة العالمية لقب "الاس الأوليمبي"، وفى أول اجتماع لمسئولي النادي بعد عودة ثلاثي الفريق من دورة الألعاب.. قرروا تغيير اسم النادي إلى النادي الأوليمبي تكريمًا للاعب أحمد سالم، وأصبح شعار النادى الحلقات الأوليمبية الخمس.

(١٠)

تكونت الفرق بعد ذلك، فظهر عام ١٩٠٦ الاتحاد السكندري بتعاون من الإخوة محمود وسيد حودة وشقيقهم حسن حودة الشهير بـ حسن رسمي وآخرين، وضم الاتحاد عددًا من الأندية الصغيرة السكندرية في تكوينه، وكان لا يقبل اشتراك الأجانب، ثم عام ١٩٠٧أسس النادي الأهلي للرياضة البدنية بديلًا لمنتدى طلبة المدارس العليا للألعاب الرياضية الذى كان يترأسه عمر لطفى بك، وكاد النادي أن يصبح مصريًا خالصًا في تكوينه مثل نادي "الاتحاد السكندري" لولا أن الإنجليز أقحموا السير ميشيل أينس ليكون ضمن الأعضاء المؤسسين، وفى عام ١٩١١ أسست الجالية البلجيكية برئاسة مرزباخ "نادى قصر النيل"، وعندما توسعوا في مقر ومباني النادي أطلق عليه "نادي المختلط" نسبة إلى مسمى المحكمة التي كان يترأسها مرزباخ في مصر، وبانتقال حسين حجازي إلى فريق المختلط زادت شعبية النادي، وانتقل إلى مقر جديد بالقرب من مسرح البالون على الشاطئ الآخر المقابل للزمالك، فسمي بنادي الزمالك، وفى عشرينيات القرن الماضي تكونت أندية شعبية أخرى مثل النادي المصري، ونادي الترسانة، ونادي الإسماعيلي.



جورج مرزباخ بك

(١١)
طالت ثورة ١٩١٩ الكثير من الجوانب في مصر أسوة بالجانب السياسي الذى تزعمه سعد زغلول، فظهر طلعت حرب يقود الثورة الاقتصادية، وسيد درويش يقود الثورة الغنائية، وإبراهيم علام وحسين حجازي يقودان الثورة الرياضية ضد احتكار الأجانب لمناصب الاتحاد المصري المختلط، وكشف علام للرأي العام كواليس ثورته الرياضة في جريدة البلاغ.. لهذا يحق لنا أن نصف ١٩١٩ بالثورة الشاملة.

(١٢)
بداية الثورة.. دعت اللجنة الدولية الأولمبية مصر للاشتراك في دورة انفرس الأوليمبية عام ١٩٢٠، ووصلت الدعوة إلى مسيو "أنجيلو بولانكى" سكرتير عام اللجنة الأوليمبية المصرية التي ألفها الإنجليز وأصحاب المصالح عام ١٩١٠ ورئيس الاتحاد المختلط، فكما كانت هناك محاكم مختلطة كان الاتحاد الرياضي مختلطًا.. خاطب بولانكي وزارة الأوقاف العمومية لتوفير ميزانية

للمشاركة، فاعترض الرياضيون الوطنيون أن يترأس البعثة إنجليزي، وحدث صراع بين بولانكى وإبراهيم علام انتهى برفض الفرق الشعبية المصرية في بور سعيد والإسكندرية المشاركة في بعثة يديرها إنجليزي، ورفضوا أيضا ضم مسابقة كأس السلطانية إلى الاتحاد المختلط، وسرعان ما انضم لهم فريق الأوليمبي العريق.. فعزلت السلطات علام من سكرتارية إدارة المسابقة، وسافرت البعثة المصرية تحت رئاسة "المسيو هيرمان" سكرتير الاتحاد المختلط إلى بلجيكا، بميزانية تم توفيرها عن طريق الاكتتاب.

سوء نتائج البعثة، وضعف الاتحاد المختلط.. دعم أهداف جماعة التمصير، فاجتمعت جماعة التمصير بعد عودة البعثة، وقررت استئناف برنامجها ونشاطها ومطالبها، واستثمرت نتائج البعثة المخيبة للآمال في كسب مؤيدين وداعمين من جمهور لعبة الفوتبول.

(١٣)

الزمان: ٣ ديسمبر ١٩٢١

المكان: نادى خريجي التجارة العليا

الحدث: بعد أن تأكد للمصريين أن سلطة الأجانب في الاتحاد المختلط تداعت وانكمشت، وفشلت في إدارة البعثة الأوليمبية.. أصبح لدى الرياضي المصري ثقة في نفسه، فاجتمع مندوبو أندية الأهلي والمختلط والقاهرة والسكة الحديد والعباسية، وتواصلوا مع فرق الاتحاد السكندري والمصري البور سعيدي واتحاد السويس.. لتأسيس اتحاد مصري وطني، وكان إبراهيم علام قد تفرغ قبل الاجتماع بأشهر لترجمة قانون اللعبة ولوائحها، والضوابط المنظمة للمسابقات المحلية، وبعد عرضها على الحاضرين في الاجتماع.. نوقشت واعتمدت بجلسة ٩ سبتمبر ١٩٢١، وتم انتخاب أول مجلس إدارة للاتحاد.. جعفر والى رئيسًا، وفؤاد أباظة وفؤاد أنور وكيلين، وإسماعيل يسرى أمينًا للصندوق، ويوسف محمد سكرتيرًا، وإبراهيم علام ومحمد صبحى ورياض شوقي وعلى صادق وطه السرجاني أعضاء.

الأسطورة هيجي

(١)
لكل جيل أسطورة كروية، وحسين حجازى أسطورة كل الأجيال..



حسين حجازي

كتب عنه المعلق الأشهر محمد لطيف "لقد أخرجت مصر العديد من النجوم على مر الأيام، وكان هناك قمم في الكرة على مر الأجيال.. لكن حجازي كان وحده قمة، والجمهور هو الحكم في مثل هذه الأمور.. كان الجمهور يسميه البيه.. حجازي بك.. إنه لقب لم يحصل عليه لاعب لا بعده ولا قبله.. كان بك بمعنى الكلمة.. ورث عن والده مائتي فدان.. كان على مستوى أخلاقي ولعب وكل شيء.. كان حجازي هو قمة اللعب الهجومي"

(٢)

شرقاوي من مواليد "قريملة" مركز بلبيس عام ١٨٨٥.. رحل مع أسرته إلى القاهرة، والتحق بمدرسة الناصرية الابتدائية عام ١٩٠٢، وأثناء عودته إلى منزله بعد يوم دراسي طويل.. شاهد جماعة من الشباب تلعب الكرة في حوش نظارة المالية، وكأنها النداهة التي جذبته واختطفته.. تابع المباراة في شغف تام، وبعد عودته للمنزل طلب من والدته أن تسمح له بشراء كرة قدم، فأعطته ثمن كرتين.. اشتراهما حجازي، وأقنع صديقه محمد محمود أن يكون حارسًا للمرمى.. يقول حجازي عن هذه الذكرى "كنا نقضي أوقات فراغنا كلها في السلاملك.. أحاول أنا أن أقذف الكرة بعيدًا عن يديه حتى تدخل المرمى، وهو يحاول أن يصدها.. كنا نلعب دائما بكرتين، ومنذ ذلك الحين اعتدت أن أتمرن بكرتين، وفى ذات يوم اكتشف المشرف على فريق الفوتبول بمدرسة الناصرية الابتدائية ما اكتسبته من مراني اليومي في البيت، فاختارني ضمن الفريق الثاني، وكنت أصغر لا عبى الفريق سنًا وجسمًا". انتهى من دراسته في التعليم الأساسي، والتحق بالمدرسة السعيدية الثانوية، وبرز فيها كلاعب كرة "حريف"، وبطل لألعاب القوى.. حقق مع فريق مدرسته العديد من البطولات جعلته حديث زملائه في المدرسة، وحديث جمهور الكرة، فتهافتت عليه الأندية للتعاقد معه، وكان نادى السكة أول الأندية التي انضم إليها.. لعب في قسم فريق المصريين بالنادي منافسًا فريق الإنجليز في نفس النادي.. ناظر مدرسة السعيدية كان إنجليزيًا، وكان من عشاق اللعبة والمغرمين بها والمشجعين لها.. أعجب بمهارات حجازي، وأقنعه وأغراه ويسر له الالتحاق بجامعة كمبردج عام ١٩١٠.

(٣)

في الجامعة الإنجليزية انضم حجازي لفريق الكرة، وشارك في فوز فريق جامعته لأول مرة في تاريخها على جامعة إكسفورد، وانتزع منها بطولة الجامعات عام ١٩١١، وهتفت الجماهير الإنجليزية باسمه مختصرًا "هيجى.. هيجى"، وفى احتفال كبير قلده مدير الجامعة الشارة الزرقاء، وحاملها كان يعامل معاملة الشخصيات الهامة، وخلال تواجده في إنجلترا لم تستطع إكسفورد الفوز على كمبردج. نزل حجازي ضيفًا على الأندية الكبرى، وشاركهم تدريباتهم، ولتميزه غزت شعبيته بلاد الإنجليز، فضموه لمنتخبهم الوطني، وفى إحدى مباريات المنتخب الإنجليزي في مدريد.. شاهده الملك ألفونسو ملك إسبانيا، وبعد المباراة التي انتهت بفوز إنجلترا على إسبانيا.. حياه الملك، وقال له "لو في العالم أحد عشر لاعبًا مثلك، لسلمت لهم الكرة الأرضية بالسيادة على اللعبة"..



منتخب إنجلترا - حجازي يسار حارس المرمى

(٤)

أعلنت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، وعاد حجازي إلى وطنه، وشارك باللعب في أنديته، وأصبح كابتن مصر.. وقاد الفريق الوطني في أول دورة ألعاب أوليمبية شاركت فيها مصر بـ أنتوبر في بلجيكا ١٩٢٠، ورغم فوز فريقنا الوطني على بلجيكا مرتين قبل البطولة.. فازت بلجيكا بالبطولة، وضاعت فرصتنا بالفوز بسبب إصابة حجازي بتقلص في العضلة.

وفى دورة الألعاب الأوليمبية في باريس عام ١٩٢٤.. قاد حجازي الفريق، وأصر على اللعب رغم إصابته في ساقه، ولعب كما لم يلعب في حياته وهزم فريقنا الوطني فريق المجر ٣/١.. في حوار مع الجناح الطائر لاعب الاتحاد السكندري المدهش سيد حودة "بطل فيلم شالوم الرياضي - إنتاج ١٩٣٧".



اللاعبون الواقفون : على الحسنى وزكى عثمان واحمد سليمان وحسين حجازى ومحمود مختار
واللاعبون الجالسون : ممدوح مختار والثالث عبد الحميد حمدى ومختار التتش وعبد الحميد محرم

قال عن هذه الأهداف "أحرز إبراهيم يكن أول جول، وكان يلعب في الهجوم مكان مختار التتش لإصابته، وأحرز حسين حجازي الهدف الثاني بكرة فرست تايم من بعد خط البلنتي، اما الهدف الثالث فقد أحرزته أنا بكرة مجهزة من حسين حجازي"، وتكلم مختار التتش عن هذه الأهداف في مذكراته وأضاف "كنا الفريق الوحيد في الدنيا الذي لا مدرب له"، وفي الدورة الأوليمبية بـ امستردام عام ١٩٢٨ سافر الفريق القومي بدون حجازي لأسباب عائلية خاصة به، وأحرز الفريق المركز الرابع بعد فوزه على تركيا وبلغاريا.
انتقال حجازي بفريقه وجماهيره إلى الأهلي، ثم التعاقد مع المختلط «الزمالك»، فينتقل إليه بفريقه وجماهيره.. سببًا من أسباب تعصب جماهير الفريقين، وزاد التعصب بعد اعتزال حجازي، واحترافه لعبة البلياردو التي أحرز فيها بطولة القاهرة، فظهر آخرون يحاكون مهارات حجازي الفريدة.. تصارع على ضمهم الأهلي والزمالك تحت رعاية المرض الإنجليزي "التعصب".

الشيخ الثائر

(١)

على أصابع اليد الواحدة يمكنك إحصاء عدد الذين قررت حكومة من الحكومات المصرية نقل رفاتهم إلى ضريح خاص بهم على نفقة الدولة إجلالًا لهم، واعترافا بما قدموه لهذا الوطن من تضحيات في سبيل حريته.. أحد هؤلاء الشيخ الثائر حسن العدوي الذى قررت محافظة القاهرة أواخر الستينيات إطلاق اسمه على ميدان ملاصق لمسجد الحسين، وإقامة مسجد أمام الميدان بتكلفة أحد عشر ألفًا من الجنيهات يحمل اسمه، ونقل رفاته إليه.. هذا التكريم إن دل على قيمة الرجل ومكانته، ولهذا لا يفوتنا أن نقتبس من ذكراه بعضًا من هذه القيمة.

(٢)

ينتسب الشيخ إلى عائلة من قبيلة "بنى عدى" استقرت منذ زمن بعيد في مدينة عدوة بمغاغة، وهى عائلة دينية صوفية لها العديد من الأضرحة في الإسكندرية والقاهرة وأسيوط.. يزورها المصريون كعادتهم للتبرك بها، وسرد ما في حكايتهم من كرامات يعشقها العامة..

من هذه العائلة برز الشيخ الثائر حسن العدوى، ولمع نجمه عندما حافظ على هيبة علماء الدين في حضرة السلطان العثماني، وهى حكاية اختزل بها المؤرخ جمال بدوى في كتابه "مصر من نافذة التاريخ" شخصية الشيخ.. تبدأ الحكاية عندما زار السلطان العثماني عبد العزيز مصر عام ١٨٦٣، ووضع الخديوي إسماعيل الشيخ العدوي في قائمة مشايخ الأزهر الموفدين للاستقبال.



الشيخ العدوي

وللمثول بين يدي السلطان عهد لقاضي القضاة التركي تعليم الوفد المصري مراسم البروتوكول التركي في هذه المناسبة، وفيه ما يبين مدى الولاء والطاعة من الرعية للسلطان، فالدخول في حضرته يمثل الخنوع التام بالانحناء الشديد والتلويح باليدين حتى تلامسا الأرض ورفعهما إلى مستوى الرأس بشكل متكرر، والانسحاب يكون بالتقهقر للخلف مع الانحناء الشديد، وفعلا قام الوفد بالمطلوب منهما طبقًا للبروتوكول، وعندما جاء الدور على الشيخ حسن العدوي، حتى انحنى في مدخل الباب انحناءة خفيفة، ثم اعتدل سائرا إلى حيث يجلس السلطان بخطى ثابتة وواثقة، وصعد إلى المنصة التي يقف عليها السلطان، وألقى عليه السلام "السلام عليك يا أمير المؤمنين"، رد السلطان السلام، وبعدها انطلق لسان الشيخ وخطب في السلطان يذكره بواجبه نحو رعاياه

بصفته كبير الحكام ومسئولًا عن شئون الرعية، وأكد له أن ثوابه سيكون بمقدار المسئولية وحسن أدائه فيه، كما أن عقوبته عند الله على قدر إهماله الأمانة.
عاتبه زملاؤه، ولاموه على فعلته، وأنذروه بعقاب الخديوي والسلطان، فقال لهم "لماذا أنتم منزعجون؟! أما أنا فقد قابلت أمير المؤمنين، وأما أنتم فكأنكم قابلتم صنمًا، وكأنكم عبدتم وثنا.."
حاول الخديوي إسماعيل أن يتدارك الأمر أمام السلطان، وادعى أن الشيخ مجذوبًا، فقال له السلطان "لا.. إنه ليس مجذوبًا.. وإني لم أنشرح لمقابلة أحد انشراحي إلى مقابلته" وأمر للشيخ العدوى بجائزة ألف جنيه، وخلعة سنية.
(٣)
قامت الثورة العرابية، فانحاز لها الشيخ حسن العدوي، وانضم إلى قادتها، وأصبح من الداعين لها رافضًا كل أنواع الإغراءات للانضمام إلى صف الخديوي وحاشيته، ورافضا الصمت في أصعب أوقات الوطن، فسافر إلى أسيوط والمنيا خطيبا للثورة، وحشد الناس خلف عرابي بالآلاف، وبعدما أعلنت إنجلترا الحرب على مصر.. سافر إلى أرض المعركة في الإسكندرية وكفر الدوار لرفع معنويات المحاربين والأهالي، وتتوالى الأحداث سريعة.
على الجانب الآخر، ومن مذكرات الشيخ محمد عبده..
في ١٠ يوليو ١٨٨٢ سأل أميرال الخديوي توفيق: ما مصير الإسكندرية لو ضربها الإنجليز؟
الخديوي: ستين سنة " يقصد ستين داهية".
الأميرال: أرجو أن تتوسط لدى الأميرال سيمور، والوقت لم يزل يسمح بذلك، واستدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال كفاية.
الخديوي: فلتحرق المدينة جميعها، ولا يبقى فيها طوبة على طوبة حرب بحرب، كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رأس أولاد الكلب الفلاحين.
واختفى بعدها الخديوي عن الأنظار..
(٤)
في ١١ يوليو ١٨٨٢ الساعة السابعة صباحًا ضُربت الإسكندرية، وكان عرابي قد أوصى ضباطه ألا يبادلوا الضرب إلا بعد خامس طلقة يطلقها الإنجليز، ولجأ الخديوي ورئيس وزرائه راغب باشا وحاشيته إلى سراي رأس التين ليكونوا في حماية الإنجليز، وأعدوا له جناحًا في القصر.. غير مبالٍ بحقوق شعبه في الدفاع عن نفسه، ولتأكيد ولاء الخديوي للإنجليز أمر راغب باشا أن يكتب لـ سيمور خطابا "لي الشرف الرفيع أن أعلن لحضراتكم أن عرابي يشتغل الآن بإعداد وسائل الدفاع وذلك مخالفة لأوامر جناب الخديوي، فكونوا إذن على علم بأن الخديوي عزم على عزله، فهو لذلك المسئول عما يحدث.. فأرجوكم أن تبلغوا هذه الرسالة إلى حكومة جلالة الملكة".



مساء يوم ١٤ يوليو، وبعد حرق الإسكندرية أرسل الخديوي رسالة لعرابي يقول له فيها أن الإنجليز لا يريدون احتلال مصر، وأنه أخطاء عندما أمر بصيانة الطوبى، وأن الجيش العثماني هو المعنى بحماية مصر، وعليه أن يحضر هو ورفاقه إلى قصر رأس التين للمداولة.. طلب عرابي من الخديوي ضرورة مغادرة السفن الإنجليزية من الإسكندرية كي يستجيب لدعوته بالحضور والمداولة، وأكد على أن إنجلترا خرقت سياج السلم، ودمرت المدينة، وان قرار الرد جاء حسب القرار الصادر من المجلس المرؤوس من الخديوي شخصيًا.
(٥)
وفى ٢٠ يوليو أعلن الخديوي عصيان عرابي وعزله من نظارتي الجهادية والحربية في منشور طبع وعلق في شوارع الإسكندرية..
"ليس خافيا ما اقدم عليه أحمد عرابي وشيعته الضالة من الأفعال المغايرة، والتشبثات الفوضوية التي أخلت بنظام القطر، وأضعفت الثقة به، وأورثته الخسائر والأضرار الجسيمة، ولا سيما بانضمام الجيش المصري إليه، واتحاده معه في البغي والمجاهرة بالعصيان لحكومتنا الخديوية، حتى ارتبكت الأحوال وخيفت العاقبة، فبادرت الممالك العظيمة بعقد المؤتمر الدولي بالأستانة للنظر إلى المسألة المصرية، وتقرير ما به حلها، وبعد البحث والمذاكرة.. استقرت رأيها على اتخاذ الطرق التي تكفل عودة سلطتنا الخديوية، وتأديب هؤلاء الخارجين ليستتب الأمن، وتزول

أسباب المفاسد، ولما كانت الدولة البريطانية لها بالقطر المنافع الكبرى ماليا وماديا، ولا سيما بالنظر إلى قنال السويس الذى هو طريقها الوحيد للخطة الهندية المهمة، فقد أخذت على عهدتها وتحت أمرتها التدخل الفعلي لقمع هؤلاء المفسدين، ومحو آثار الفتن.. دون أن تمس حقوق السلطنة السنية، ولا الامتيازات المصرية، ولتحققنا ان نيتها ومساعيها في الظاهر والباطن ليس إلا الإصلاح، ولا غاية لها في الاستيلاء على البلاد، ولا الفتك بأهلها لعداوة دينية أو غير ذلك مما يذيعه العصاة تنفيرا منهم للعامة، وتبغيضا لهم في الأمة الإنجليزية، فاستدراكًا للأمر، ومراعاة للمصلحة العامة، فقد رخصنا لحضرة القائد العمومي للجيش الإنجليزي للتحول نحو جموع العصاة، واستعمال الوسائط القاهرة لتبديد شملهم، وسرعة القبض على رؤوسهم لمقاصتهم بما يستحقون من أشد العقاب، وبما أن العساكر الإنجليز يعدون في هذه الحالة نائبين عنا.. على كل مصري يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالإكرام اللائق بهم، ولا يتأخر عن مساعدتهم"

الجهاد – الاربعاء ٢٩ ربيع الاول سنة ١٣٥٣ – ١١ يوليه سنة ١٩٣٤

استعراض الجيش البريطاني بالقاهرة في حوادث سنة ١٨٨٢

في الصورة المنشورة فوق هذا الكلام سمو الخديو توفيق مطلا من شرفة السراي أثناء استعراض الجيش البريطاني
وترى عن يسار سموه السير مالبه فالسير بوشان سيمور فالملحق الالماني وبعض العلماء

(٦)

دعيت الجمعية الوطنية في القاهرة، وعقدت اجتماعها في ٢٢ يوليو بحضور شيخ الاسلام الإنبابى وبطريرك الأقباط وحاخام اليهود وعلماء الأزهر الشيخ السيد محمد عليش والشيخ حسن العدوي والنواب والتجار وثلاثة من الأمراء هم إبراهيم أحمد وكامل فاضل وأحمد كمال، وقررت الجمعية إبقاء عرابي في منصبه وتوقيف أوامر الخديوي ونظاره وعدم طاعتها وتنفيذها، وأفتت بخروج الخديوي عن قواعد الشرع، وهذا نص الفتوى التي نشرتها الوقائع المصرية في ٣١ يوليو ١٨٨٢.
"بعد تلاوة الأوامر الصادرة من الخديوي توفيق باشا أولا وآخرا، وفيها الأمر الصادر إلى أحمد عرابي باشا، وتلاوة منشورات عرابي باشا، وبعد سماعنا ما عرضه وزير الداخلية بصفته بهذه الوظيفة ورئيس المجلس المشكل لإدارة أشغال الحكومة على المجلس، وهو هل وجود الخديوي في الإسكندرية هو ونظاره تحت محافظة عساكر الإنجليز يقتضى عدم تنفيذ أوامره أم لا؟؟.. وإذا صدرت له أوامر من الخديوي هل يعمل بها أم لا؟؟.. رأينا أن وجود العساكر الإنجليزية في الإسكندرية وبقاء مراكبهم الحربية في السواحل المصرية، ووقوف عرابي باشا لمدافعة العدو يقضي وجوب بقاء الباشا المشار إليه في نظارة الجهادية والبحرية مداومًا على قيادة العسكر متبعًا في أوامره المتعلقة بالعسكرية، وعدم انفصاله عن تلك الوظيفة ورأينا وجوب توقيف أوامر الخديوي وما يصدر من نظاره الموجودين معه في الإسكندرية كيفما كانت ولأي جهة من الجهات، وعدم تنفيذها حيث إن الخديوي خرج على قواعد الشرع الشريف، والقانون المنيف، ويلزم عرض قرارنا هذا على الأعتاب الشاهينية بواسطة وكلاء النظارات".
طلب بعض المجتمعين التوقيع على هذه القرارات بعد تأدية اليمين فقال شيخنا العدوي: إنه لا يليق أن نوقع اعترافًا على عدم الثقة بأنفسنا.. إن الذى يحنث بيمينه لا يؤمل منه الإخلاص لوطنه، وهل تحرك بصمات الأصابع أو حبر الأختام النخوة في النفوس أكثر من ميثاق عهد الله؟!
وما إن انتهى الشيخ من كلماته حتى احتج عليه عبد الله فكري باشا وزير المعارف في حكومة عرابي، ورماه بالضعف إذ كان من رأي عبد الله فكرى ليس فقط قرار إيقاف الخديوي.. بل كانت تراوده فكرة إهدار دمه.

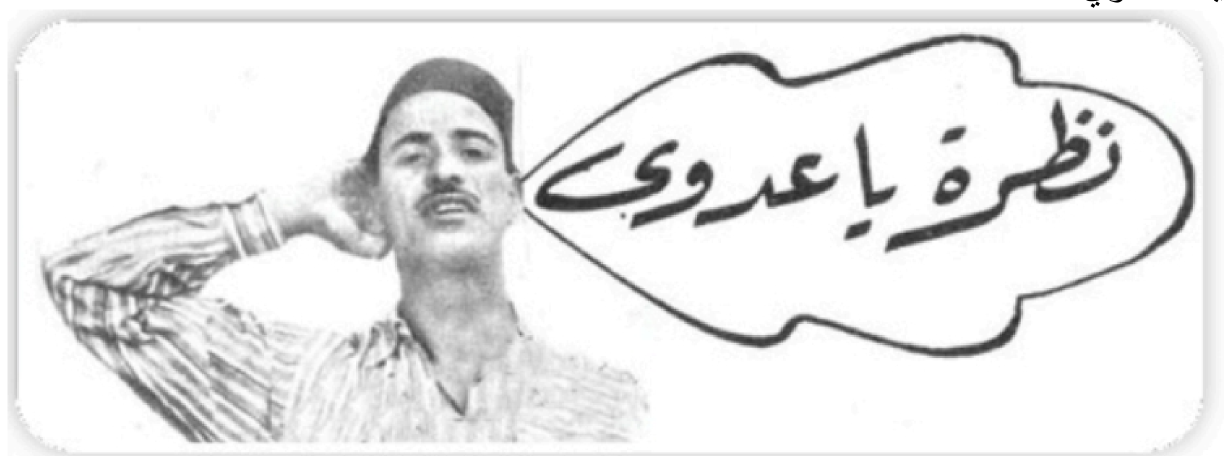
(٧)

بدأت الحرب بين المصريين وخليط من أجناس مختلفة استخدمهم الإنجليز لغزو مصر.. الدم الإنجليزي متغطرس وغالٍ لا يمكن إهداره بسهوله، والبديل كانوا جنودًا من بلاد سبق واحتلتها بريطانيا مثل الهند وإسكتلندا وايرلندا وبعض الدول الأفريقية، ومعهم المصريون الموالون للخديوي توفيق، بالإضافة إلى الخونة داخل جيش عرابي.. بدأت الحرب، وكانت أحاديث النديم والعدوى بمثابة الأناشيد الوطنية..
انتهت الحرب.. عرابي هزمه الولس.
وحضنت سجون توفيق تسع وعشرين ألف مواطن وثائر، ونصبت المحاكم العسكرية الإنجليزية على نواصي الشوارع والحارات، وصدرت الأحكام التي لا استئناف لها، ومن الذين خضعوا للمحاكمة الشيخ العدوى، وأثناء محاكمته دار بينه، وبين القاضي إسماعيل أيوب باشا هذا الحوار..
إسماعيل باشا: هل ختمت على القرار الذى صدر بإبقاء عرابي في وظيفته وتوقيف أوامر الحضرة الخديوية والموافقة على عزله؟
الشيخ العدوي: نعم.. ختمت على هذا القرار.
إسماعيل باشا: هل ختمت برغبتك ورضائك أم لسبب آخر؟

الشيخ العدوي: كان ختمي برغبتي ورضائي للموافقة الواجبة شرعًا وسياسة، وما كان ينبغي لحر تجرى فيه دماء الوطنية أن يمتنع عن الختم.
إسماعيل باشا: علم المجلس أنك أفتيت بعزل جناب الخديوي، فهل هذا حقيقي أم لا؟
الشيخ العدوي: أريد أولًا أن أسمع نص هذه الفتوى.
إسماعيل باشا: هذا نصها: «ما القول في حاكم العهد وأحدث الفتنة بين المسلمين، وشق عصاهم، ثم انتهى به الأمر إلى أن اختار ولاية غير المؤمنين على ولاية المؤمنين، وطلب من عدو أن ينفذ قوته في بلاد حكومته، وأمر رعاياه أن يذلوا ويخضعوا لتلك القوة الأجنبية، وبذل عنايته في المدافعة عنها، ولما دعاه المؤمنون للرجوع عن هذا أبى وامتنع، وأصر على المروق من الشريعة.. فهل يجوز شرعًا أن يبقى هذا الحاكم حاكمًا أو يتعين عزله؟».
الشيخ العدوى: ادفعوا لي بهذه الفتوى، وجيئوني بمنشور أقوى منها، وأنا أوقعه أمامكم الآن.. ما في وسعكم وأنتم رجال أن تنكروا أن الخديوي توفيق مستحق للعزل لأنه مارق عن الدين والوطن.
استكمل إسماعيل أيوب الجلسة في اليوم التالي، وحاول إجهاد الشيخ المسن بإعادة نفس الأسئلة، فأعاد الشيخ نفس الإجابة.. أعاد سؤاله عن فتوى خروج الخديوي عن الشرع، وعن بقاء عرابي على رأس الجيش، وأجاب على السؤالين أنهما واجبان شرعًا وسياسة للمدافعة عن الوطن.
إسماعيل باشا: كيف تشيع لعرابي وهو العاصي وتدعو له بالنصر؟ ولا يخفى أن صدور ذلك ممن كان مثلك معتبرًا من أعظم العلماء يوجب أحمد عرابي على أن يفتخر لنفسه ويظن ويتوهم فضلًا عن تشويش الأذهان.
«يظهر إسماعيل باشا خطابًا أرسله العدوى إلى عرابي يقول فيه أرجو أن يعز الله بكم الإسلام، ويجعل كيد عدوكم في نحره»
الشيخ العدوى: هذا الخطاب صدر مني وكفى في قولي ورزقني الله وإياكم الاستقامة، ووفقنا لمرضاته، وهذا من باب النصيحة، ومن باب الدعاء بعز الإسلام لا لنفس أحمد عرابي.
يأس القاضي أن يجعله يتنصل من تأييده لعرابي، وأن يلقي التهمة على آخرين كما فعل الكثيرون أثناء محاكمتهم، ولتفريغ الثورة من زعمائها.. أمر بتجريده من ألقابه الشرفية، ومن وظيفته الحكومية، وصادر ممتلكاته، وممتلكات أسرته.. لكنه لم يكفر بالثورة.

يااااا عدوي

(١)
عيلة تايهة تايهة
يا ولاد الحلال
ببلوزة نايلون
على جيبة ترجال
والأجر والثواب عند الله
ياااا عدوي.



(٢)
في طفولتنا كنا نمشي خلف المنادي وهو يصيح «عيل تايه يا ولاد الحلال»، ويكررها بصوت أعلى مع إضافة وصف لملامح الطفل المفقود وعمره، فنشفق عليه من كثرة الصياح الذي تبح بسببه الأصوات، ونساعده في سذاجة بأصواتنا الخافتة التي لا تكاد تتخطى مساحة بيتين، وكان المسموح لنا من أمهاتنا بشكل ضمني دون تصريح ألا نتجاوز معه حدود شارعنا، وفى نهاية الشارع يتسلمه عدد آخر من أطفال الشارع المجاور لنا، ونعود ونترك لهم هذه المهمة المصيرية التي كنا نسعد عندما تنتهي بالعثور على مقصوف الرقبة.

(٣)
المنادي قديمًا كان ينتمي لطائفة «المنادون»، وهم ينتسبون إلى سيد المنادين الأكبر الشيخ محمد العدوي صاحب الضريح الكائن في الإسكندرية بشارع إسماعيل باشا صبري، وهو ينتمي للقبيلة التي ينتسب إليها الخليفة عمر بن الخطاب وخطيب الثورة العرابية حسن العدوي، وهى بطن من بطون قريش..

مما قيل عنه إنه كان يسكن في حي بولاق، وعاصر عهد محمد علي باشا، وكان محبًا للأطفال.. يجتمعون حوله ليداعبهم بالفوازير اللطيفة، ويسليهم بألعابه وحيله الكثيرة، وقد اعتادت الأمهات على رؤية أطفالهن بصحبة هذا الشيخ العجوز في مسجد الحي، وإذا تاه طفل خرج الشيخ بنفسه للبحث عنه، ولا يعود إلا ومعه الطفل التائه، فتفرح النساء، ويطلقن الزغاريد فرحًا بعودة مقصوف الرقبة، وهي مناسبة جديرة أن يبل الشربات من أجلها، وعندما مات سيد المنادين بكى

على فراقه نساء الحى ورجاله، وخلعوا عليه كما خلعوا من قبل على من أحبوهم من المشايخ صفات أولياء الله الصالحين .

(٤)

مع مرور الأيام والسنين.. شب أطفال بولاق الذين عاصروا الشيخ العدوي، وتربوا على يديه، وكرسوا وقتهم للبحث عن الأطفال التائهين إسوة بما كان يفعله شيخهم، وتحاكوا وتباهوا بتاريخه وحكايتهم معه، وتفرقوا في أنحاء القاهرة مؤسسين لطائفة جديدة يطلق عليه "المنادون" تضم أتباع سيدى العدوي، ومن المنادين عدد كبير من المكفوفين، وكان مشهد جولة المنادي الكفيف المتكئ على عصاه وفى يده والد الطفل التائه من المشاهد التقليدية تكتمل بصراخ المنادى «نظرة يا عدوي»..

اعترف الناس في الأحياء الشعبية بهذه المهنة وأصحابها نظرا لحاجتهم الشديدة إليهم، فإذا غاب طفلهم ذهبوا إلى المقر المعروف في الحى للمنادي من أتباع الشيخ العدوى، والمشهود له بالجدية في عمله، وهناك يتفقون على مقدم الأتعاب، وحلاوة العثور على الطفل التي في بعض الأحيان كانت تصل لـ جنيه إذا كان الطفل ابن عز أو وحيد أمه، فيطوف المنادي في الحواري والأزقة مناديًا في الناس بأوصاف الطفل التائه مستنجدًا بشيخه، وهاتفًا «ولد تائه من امبارح العصر.. وحلاوته أحسن منه يا ولاد الحلال "، وكان الدارج أن ينجح المنادي في العثور على الطفل من أول جولة بحث، وتتسلم الأم طفلها بعد الغياب، فتضرب على صدرها بيديها من الفرح وهي تصرخ "كلك خير وبركة يا شيخ يا عدوي"، ولا تنسى أن تذهب في اليوم التالي لتوفى النذور، وقد تطول جولة المنادي إلى ثلاثة أو أربعة أيام وخاصة إذا كان مقصوف الرقبة من هواة السفر سيرًا على الأقدام .

إنجيل وثورة وأزهر شريف

(١)

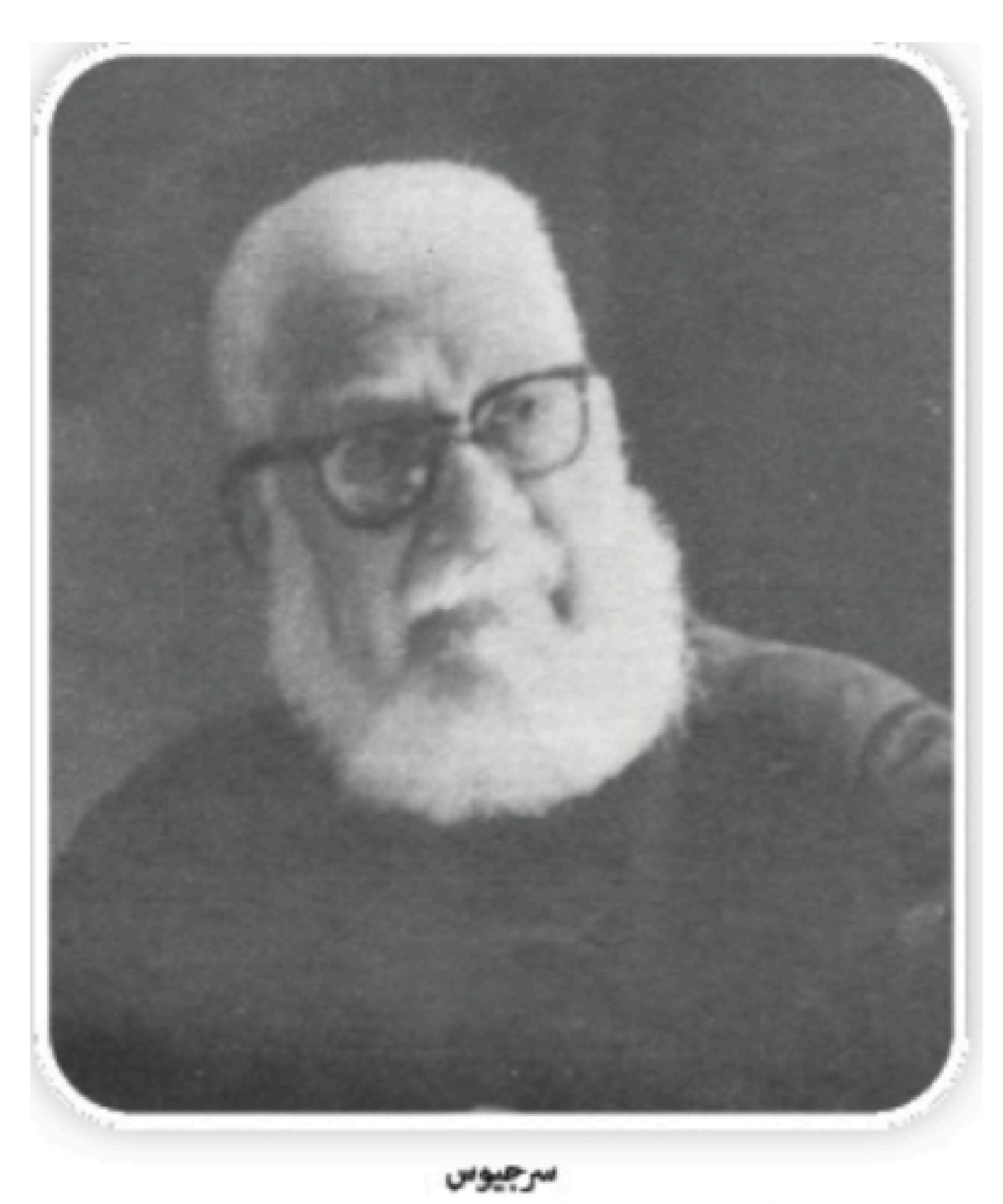
لكل حدث تاريخي صوره الذهنية، وشريط مشاهد تخيلية خاصة به، والصور الذهنية لـ ثورة ١٩ عديدة، وأكثر من أن تحصى في نقاط، وإن سردنا فلا على سبيل الحصر، ولكن على سبيل المثال.. سعد باشا في المنفى، وعلم أخضر، وهلال يحتضن صليب، وفتيات بالبرقع والبيشة في مظاهرة، وأول شهيدة مصرية في ثورة، ولجان شعبية تحمى الشوارع، ويا بلح زغلول يا حليلة يا بلح، ومنشورات سرية، وفرق الموت، ومظاهرات الطلبة والأفندية والفلاحين والأطفال ورجال الدين، وعاش الهلال مع الصليب، والاستقلال التام أو الموت الزؤام "الموت السريع"، وقوم يا مصري مصر ديما بتناديك، ومنولوجات وطنية لحسن فايق، وجمهورية زفتى، وقس يخطب من فوق منبر الأزهر.



(٢)

في فيلم "بين القصرين" إنتاج ١٩٦٢ جسد على الشاشة ولمدة عشر دقائق مخرج الروائع حسن الإمام ما كتبه نجيب محفوظ في روايته التي تحمل نفس الاسم مشاهد للثورة، وما من فيلم تسجيلي يتحدث عن ثورة ١٩ إلا واستعان القائمون عليه بهذه المشاهد التي حاكت ما كتبه المؤرخون بصورة مدهشة، وفيها نرى الطلبة يغادرون مدارسهم ومعاهدهم وجامعتهم، والصناع يهجرون مصانعهم، والموظفون يقاطعون مكاتبهم وهيئاتهم، وتجمع الكل في الأماكن العامة، واحتشدوا بالمئات والألوف رجالًا ونساء وأطفالًا، واتجهوا إلى الأزهر الشريف، وعلى ألسنتهم هتاف

"الاستقلال التام أو الموت الزؤام".. اقتربوا كثيرًا من ساحة الأزهر، واختلطوا معا الأفندية بجوار الفلاحين ورجال الدين سواء مرتدى الجلابيب السوداء يزينها الصليب متدلى من العنق أو مرتدى الجبة والقفطان تزين جباههم زبيبة الصلاة..
هتاف جماعي "في حماس": عاش الهلال مع الصليب.. عاش الهلال مع الصليب. "يفاجأ الجميع بـ قس يترك الجمع، ويصعد منبر الأزهر الشريف خطيبًا" القس: أيها المصريون.. أيها المصريون.. لقد أرادوا التفرقة بيننا.. لقد أرادوا إشعال نار الفتنة بيننا.. لقد أرادوا أن يفصلوا الروح عند الجسد، ونسوا أنه لا فرق بين مسلم وقبطي، بل لم يعد هناك أي مجال لكلمة مسلم وقبطي أمام الوطن.. إنما هي كلمة مصري يموت من أجل مصر، ويعيش من أجل مصر، ويضحى من أجل مصر.
هتاف جماعي: نموت نموت وتحيا مصر.. نموت نموت وتحيا مصر.
القس: أيها المسلمون.. بل أيها المصريون.. إنني أصافحكم بقلبي، وأضع يدى نيابة عن الأقباط في أيديكم لنتحد أمام الله من أجل مصر فإن الاتحاد قوة، ها هي قلوبنا وصدورنا أمام سلاح الإنجليز يفتك بها ما يشاء، لكنه لن يستطيع أن يفتك بمصر..
قولوا معي " عاش الهلال مع الصليب".
هتاف جماعي: عاش الهلال مع الصليب.. عاش الهلال مع الصليب.
لم يكن هذا القس سوى "سرجيوس" صوت الثورة وضميرها الشعبي، ورجل الدين الذى كان في طليعة من واجهوا سياسة الإنجليز "فرق تسد"، وحكايته مع الثورة قدر لا صدفة..
كان يسكن في الفجالة، ومرت في شارعه مظاهرة حاشدة، وعندما سأل عن أسبابها..
أجابوه: الإنجليز اعتقلوا سعد باشا، ونفوه إلى سيشل. فرد عليهم: ما بدهاش بقى.. خدوني معاكم.
عندما وصلت المظاهرة إلى الأزهر، وتجمعت معها مظاهرات أخرى.. صعد سرجيوس إلى المنبر خطيبًا في أول أيامه مشاركًا بالثورة، فكانت خطبته الأولى التي ارتجلها في الحال، ونقلها حسن الإمام في أحداث الفيلم على لسان الفنان سعيد خليل..
بعد خطبته الأولى التي أحدثت زلزالًا حماسيًا.. خطب في المساجد والكنائس، وفى الشوارع، وأثناء الاحتفالات الدينية والمدنية، وأصبح رمزًا للثورة، وخطيبها الأول، والرجل الثاني للثورة في نظر الشارع المصري بعد سعد زغلول، وصاحب مقولة "عاش الهلال مع الصليب".. المقولة التي استهلكناها في غير موضعها ففقدت قيمتها.
(٣)
قبل ثورة ١٩ تشكلت ثوريته.. من المصاعب تتزايد التجارب وتثقل الخبرة، ويشتد العزم، ففي عام ١٩٠٣ قاد إضراب الطلبة في كلية اللاهوت بسبب خفض الجراية "وجبات غذائية" التي كانت تصرف للطلبة، وقابلت البطريركية هذا الإغلاق بإغلاق الكلية وطرد الطلبة بمن فيهم سرجيوس، واتهمته بالتحريض على الإضراب، وأبعدته البطريركية إلى كنيسة ملوى، ولم تمر ثلاثة أشهر حتى اشتكت الكنيسة بمشاغباته على حد اتهامها، وطالبت بعزله، فأرسلت البطريركية للتحقيق معه، وحضر سرجيوس بعد التحقيق بملابسه العادية بعد أن خلع ملابس الكهنوت، وقال للمحققين: لا تتعبوا أنفسكم.. لقد عزلت نفسي بنفسي.



سرجيوس

سنتان دون عمل قضاهما سرجيوس في بلدته "جرجا"، ومنها إلى "الزقازيق" حيث عمل واعظًا في جمعية دينية.. ثم واعظًا في كنيسة مركز "سنورس" بالفيوم، ورُسم بعدها "قمصًا" في كنيسة أسيوط، ورقى بعدها وكيلًا للمطرانية والمجلس الملي "مجلس يختص بالنواحي الإدارية في الكنيسة"، وبعد أربع سنوات دعته جمعية دينية في الخرطوم ليعمل بها واعظًا، فسافر إلى السودان، والتحق بالجمعية، وفيها أنشأ مجلة "المنارة المرقسية"، وفى مجلته حارب الاستعمار الإنجليزي لمصر والسودان، ودعا إلى مقاومته، وكتب عن أحمد عرابي وعبد الله النديم ومصطفى كامل، ونادى بالوحدة لأبناء النيل، وحرية أراضيهم، فصدر أمر عسكري من الحاكم الإنجليزي للسودان بضرورة مغادرته السودان خلال ٢٤ ساعة.. غادرها مرغما، وعاد إلى جرجا، وظل

عاطلًا عن العمل ثلاث سنوات، وكانت كنيسة الخرطوم ترسل له راتبه كاملًا ردًا للجميل على إحيائه للحركة الوطنية في نطاقها، وقامت ثورة ١٩، وظهر فيها دوره الذي لا ينسى.

(٤)

أثناء الثورة دعا "سرجيوس" إلى الإضراب العام، حتى تصاب مصالح الإنجليز في مصر بالشلل التام، ولم يتحمل الإنجليز دعوته، واعتقلوه في ثكنات قصر النيل، ونفوه إلى رفح لمدة ثمانين يومًا.

قبل الإفراج عنه هددوه بإطلاق النار عليه، فقال لهم "إن مسدساتكم محشوة بالحلوى"، ونام على الأرض، وفعل مثله المساجين، وقال للإنجليز "هذه فرصتكم.. أطلقوا النار"، وجبن العساكر الإنجليز من تنفيذ تهديدهم، لكونه أصبح شخصية عامة، ومحبوبًا من المصريين، واغتياله لن يمر في الشارع المصري في سلام.

كتيبة الإعدام ٢

ذكرنا في الجزء الأول من "موسوعة تراث مصري" ظروف نشأة الجمعيات السرية في مصر منذ عام ١٩٠٣عندما تأثر بعض الطلبة المصريين المغتربين بمحاكمة الشاب الهندي "دنجرا" الذى اغتال في لندن وزير إنجليزي عارض استقلال الهند، وأعدموه، فانضم الطلبة المصريون إلى الجمعيات السرية الهندية، وتعاونوا على التدريب المسلح والتخطيط ضد الإنجليز العدو المشترك.. كما ذكرنا في ذات المقال أهم الجمعيات السرية في مصر ونشاطها ورموزها.. مثل الورداني وعريان يوسف وشفيق منصور وإمام واكد وعثمان الطوبجي وعبد الحي كيره، وغيرهم من الرموز.. دعونا نستكمل رموز كتيبة الإعدام.

آل عنايت..



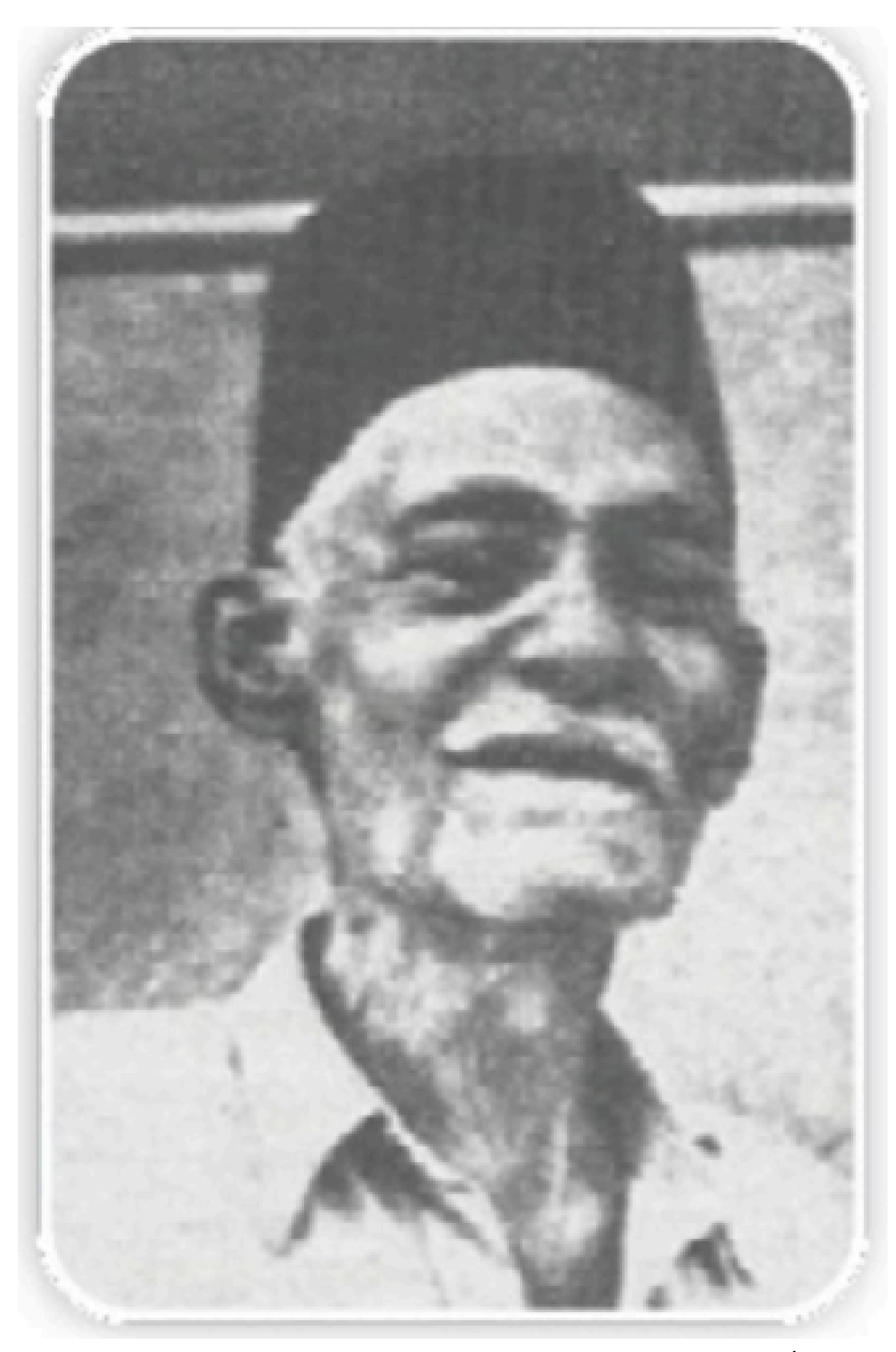
عبدالحميد عنايت

من الإنصاف أن نبدأ من الأم التي وهبت أبناءها الأربعة "محمود وعبد الخالق وعبد الفتاح وعبد الحميد" للحركة الوطنية، وكانت تسهر حتى ينتهوا من القيام بعملياتهم ثم يعودوا إليها، وبالقرب من سلم المنزل كانت تقف وتستقبلهم وتأخذ منهم القنابل والمسدسات وتخفيها..
شارك الابن الأكبر "محمود عنايت" زميله الورداني في اغتيال رئيس الوزراء بطرس غالي، وفى ١٩١٥ صنع القنبلة التي حاولوا بها اغتيال السلطان حسين كامل، وقبض عليه، ونال حكمًا بالإعدام.. لكنها خففت إلى السجن المؤبد، ونتيجة لسوء المعاملة في السجن أصيب بالدوسنتاريا، وتدهورت صحته في السجن، فسلموه لأسرته، ومات بعد ثلاثة شهور.
انضم شقيقاه عبد الفتاح طالب الحقوق وعبد الحميد طالب مدرسة المعلمين "١٩سنة" إلى "جمعية التضامن الأخوي السرية"، ونجحا بمساعدة آخرين في تنفيذ سلسلة من الاغتيالات.. منها اغتيال مستر "براون" مراقب وزير المعارف، ومستر "كيف" وكيل حكمدار القاهرة، و"روبنسون" أستاذ القانون الإنجليزي.. كما شاركا في إلقاء قنابل على عدة ثكنات إنجليزية.
في عام ١٩٢٤ قررت الجمعية اغتيال اللواء لي أوليفير فيتزوماورس "السير لي ستاك" حاكم السودان وقائد الجيش المصري، والذى كان مسيطرًا بشكل تام على الجيش المصري بأسلحته القديمة المعطلة وحالته الهزيلة الضعيفة التي لا يستطيع بها الدفاع حتى عن نفسه، وتم الاغتيال بالسيناريو الآتي.. عبد الفتاح عنايت وقف أمام مبنى وزارة الحربية منتظرًا خروج السير لي ستاك لإعطاء إشارة البدء بالتنفيذ، وعبد الحميد عنايت وقف في شارع قصر العيني على مقربة من المنفذين، وكانت مهمته إلقاء قنبلة على من يحاول القبض عليهم، ومحمود راشد جلس في السيارة المعدة للهروب، وإبراهيم موسى وعلي إبراهيم وراغب حسن استعدا للتنفيذ..
خرج السير لي ستاك واتخذ طريقه المعتاد، وأعطى عبد الحميد إشارة الاستعداد، ولدى اقتراب السيارة التي تقله من المكان المحدد هجم عليه المنفذون وأطلقوا عليه الرصاص فلاذت السيارة بالفرار إلى دار المندوب السامي، وبداخلها السردار مصابا إصابات قاتله.. توفى على اثرها في اليوم التالي.
قام إسماعيل صدقي باشا بحملة شرسة للقبض على الجناة تحت ضغط الرأي العام البريطاني، ورصد مبلغ عشرة آلاف جنيه مكافأة لمن يرشد عنهم، وعن طريق الوشاية والخيانة تم القبض على سبعة أعضاء من التنظيم ومحاكمتهم، وحكم عليهم جميعًا بالإعدام شنقًا، فخرجت مظاهرات منددة بالحكم متسائلة..
كيف يعقل أن يعدم سبعة أشخاص مقابل شخص!!.
كيف يمكن الحكم بإعدام شقيقين في نفس الوقت؟؟.
وكانت نتيجة هذا الاغتيال استقالة وزارة سعد باشا، وتقديم مصر اعتذارًا رسميًا، وسحب القوات المصرية من السودان، وتعويض نصف مليون جنيه دفعته خزانة الدولة، ومنعت المظاهرات في مصر، وعطل العمل بدستور ٢٣.
أما الأخ الرابع "عبد الخالق"، فهناك مصادر تؤكد أنه هرب إلى النمسا، ومصادر أخرى تقول إنه تم نفيه.. في الحالتين استكمل عبد الخالق دراسته هناك حتى أصبح طبيبًا في ألمانيا، وأرسل للحكومة المصرية في يونيه ١٩٥٦ خاطبًا فيه..
"هل أستطيع أن أحضر إلى مصر وأعيش فيها بصفة دائمة؟"
وكان الرد "على الرحب والسعة، ومصر تفتح ذراعيها لك لتحضر مع أسرتك وتقيم بصفة دائمة".

لم تكن أسرة "عنايت" الأسرة الوحيدة التي عمل شبابها في كتائب الإعدام.. هناك أسرة "العبد" التي شارك أفرادها في معظم العمليات والحوادث ضد الإنجليز منذ عام ١٩٠٩، وكانوا ضيوفًا دائمين في السجون والمعتقلات، وهم "طه وعبد الحميد ويوسف وحامد العبد، ولا يمكن أن ننسى أسرة "متولي" في شربين المنصورة.. الإخوة "الدكتور عبد الغفار وعبد الحليم وعبد المقصود متولي "الذين شاركوا الزعيم محمد فريد كفاحه، وأنشأوا في خارج مصر جمعيات كثيرة تدعو للقضية المصرية، وفى مصر ما من هزة سياسية حدثت، وما من محاولة اغتيال في صفوف الإنجليز إلا وكان من نتيجتها اعتقال الإخوة "متولي".. جدير بالذكر أن عبد المقصود متولي اختير مديرًا لتحرير جريدة "اللواء المصري" المتأثرة بأفكار مصطفى كامل ومحمد فريد، وقد اعتقل أكثر من مرة بسبب مقالاته النارية، وفى ديروط الأخوان أحمد ومحمود مفتاح، واللذان دفعا من عمرهما ثمانية عشر عامًا في "الليمان" لمشاركتهما في الدفاع عن قريتهما "ديروط" عام ١٩١٩.

زعيم العمال..

برشمجي في عنابر مصلحة السكة الحديد يعول أسرته من أجر يومي بسيط لا يتجاوز خمسة وثلاثين قرشًا.. رغم فقره وبساطة حاله كان يقسم أجره اليومي بين أسرته وأسر بعض العمال المحتاجين.. التزامه الديني ووطنيته وكرمه ودعوته لزملائه بالنضال والكفاح ضد المحتل جعلت زملاءه ينصبونه زعيمًا وطنيًا لهم، وأبًا روحيًا للحركة الوطنية العمالية.



منذ نشأة الجمعيات السرية كان فيها همزة الوصل بين لجان الطلبة وبين العمال.. ينقل إليهم المنشورات والصحف الوطنية السرية والتعليمات التي تصدر من هذه اللجان، وكان البوليس السياسي برئاسة "إنجرام بك" يفتش منزله مرة كل أسبوع على الأقل، وعندما يأسوا من ضبط أي منشورات.. قاموا بهدم منزله المكون من غرفة واحدة على سبيل "قرصة ودن".. هذه الخطوط العريضة تشكل بورتريه لملامح زعيم العمال أحمد جاد الله.

لم ينل ما فعله البوليس السياسي بمنزله من عزيمته وإصراره، وعلى العكس تمامًا زاد من ثوريته.. في أول شارع جزيرة بدران بشبرا أقام الإنجليز معسكرًا لهم، ليحمي جنودهم رواد الكازينوهات الذين كانوا يعتدون على الأهالي بالضرب والسب وهم سكارى آخر الليل، فرصد

جاد الله وصديق كفاحه "عثمان الطوبجي" المعسكر الإنجليزي، وأمطروه بالقنابل اليدوية في ليلة أجمل من ليلتنا هذه، ونسفوه تمامًا.
وزد في قصيدة شعر أن كتبت مدحًا في كفاح جاد الله بيتًا أجمل.. عندما تكونت "لجنة ملنر" التي خاطبت الشعب مباشرة بعيدًا عن الوفد بزعامة سعد باشا زغلول، وطالبت اللجنة الشعب المصري بالموافقة على الحماية الإنجليزية .. قاطع المصريون اللجنة، وأصروا على توكيل سعد متحدثًا شعبيًا باسم مصر، ورفضوا استمرار الاحتلال والحماية، واتفق بعض أصحاب المصالح المالية أعضاء "نادي الأعيان" مع الإنجليز على تكوين حزب "الحر المستقل" في نوفمبر ١٩١٩ للتفاهم مع لجنة ملنر، ولمحاولة التأثير على الشارع المصري لقبول الحماية.. رأس الحزب "عرفي باشا" أحد أعيان الأقاليم، ونائبه "محمد المغازي" وبينما "المنبر" جريدة الحزب تستعد لطبع بيانها الأول.. اقتحم الطلبة والعمال بزعامة أحمد جاد الله مقر الجريدة، وهددوا القائمين عليها إن استمروا في هذا السخف، وسمحوا لهم بالانصراف إلى منازلهم بشرط عدم مغادرتها إلا بعد مغادرة أعضاء لجنة ملنر أرض مصر.. وفعلا تم هذا، وأغلق الحزب وجريدته في نفس شهر تأسيسه، وفشلت لجنة ملنر.
كانت السيدة زوجته لا تقل عنه وطنية، حيث شاركت زوجها أحمد جاد الله في العديد من العمليات، فقد كانت تخرج كل يوم لتستطلع الطريق لزوجها ورفاقه قبل أن يغتالوا الإنجليز.. ثم تجلس في ركن وبيدها سلة مغطاة بالخضروات، وفى غطاء قماشي تحت هذه الخضروات كانت تخزن القنابل والمسدسات، فتعطيها للفدائيين حين يمرون أمامها.. حتى إذا وجدت الطريق خالية، أعطت إشارة التنفيذ.. ثم يعودون إليها ليسلموها السلاح، ويتظاهرون أنهم سكارى.
المؤثر في سيرة هذا الزعيم العمالي أنه كان مسنًا، وقارب عمره على السبعين عامًا، وكان يمتاز بهدوئه ووقاره، وعندما قبض عليه، وأحالوه إلى المحكمة العسكرية البريطانية.. كان يضحك ويطلب من رئيس المحكمة أن يصلي على النبي ٧ مرات.. يضحك القاضي ويلبي طلبه، فيعود ويطلب منه أن يصلي على النبي عشر مرات، وعندما نطق الحكم بإعدامه ابتسم في شجاعة نادرة.. هتف بحياة مصر، ونطق الشهادتين.. حين زارته أمه التي تجاوزت المائة عام في السجن، وكانت تمشي بمساعدة عكازين.. بكى حزنًا على حالتها عندما رآها من خلف القضبان، فغضبت الأم، وقالت له: أنت بتبكي؟ أحمد ابني راجل ما بيبكيش.
فضحك ضحكته الأخيرة.
الباشـــــا..



هو سيد محمد باشا، وباشا هنا لقب العائلة وليست رتبة مدنية تمنح بمقابل مادى لرجال السرايا.. كان طالبًا بالسنة النهائية بمدرسة المعلمين العليا، وقد عرف بهدوئه وحيائه، ولهذا اختير للإشراف على جانب كبير من حركة الفدائيين لبعده عن الشبهات، فكان يجتمع بالفدائيين ويحمل إليهم الأسلحة.. لم يشترك في التنفيذ إلا نادرًا للحفاظ عليه بعيدًا عن أعين الإنجليز، والاستثناء الوحيد لإشراكه في العمليات أن يحل محل عضو قبض عليه.. في نفس الوقت كان يحرر جريدة "المصري الحر" تلك الجريدة السرية التي كانت لسان حال رجال الثورة، واشترك مع يوسف العبد وعريان يوسف وغيرهما في شراء مطبعة كاملة لتطبع عليها هذه الجريدة، واستأجروا لها مكانًا في حي الجمالية، وجيء بماكينات المطبعة تحملها ثلاث عربات نقل كارو، ولكن اكتشف أمر سيد الباشا، وأمر المطبعة في الوقت الذى جاءت فيه العربات تحمل أدواتها، فوجه سيد باشا سائقي العربات الكارو "العربجية" إلى جهة أخرى، ووقف يضلل البوليس، ولما وقف العربجية

على سر ما يحملونه على عرباتهم.. أصروا على أن يستكملوا المشوار مع الطلبة، وينتظروهم حتى يجدوا مكانًا للتخزين.
ولما قال لهم سيد باشا: إحنا كده هنعطلكم، وهتخسروا مكسب يوم شغل.
رد أحدهم: بقى أنتم تضحوا بأرواحكم علشان البلد، ومش عايزينا نضحي بمكسب يوم واحد**!!**
وبات العربجية الثلاثة يحرسون ما تحمله عرباتهم في ركن خفي بالطريق، حتى اهتدى باشا ورفاقه إلى دار للمطبعة مواجهة للقلعة التي كانت أحد معاقل الاحتلال البريطاني، ومكث سيد باشا مع ماكيناته مختفيًا ستة شهور.. أعلنت خلالها الحكومة عن جائزة قدرها خمسمائة جنيه لمن يدلها على مكانه، فضيقوا عليه الخناق.. اضطر باشا أن يتفق مع قبطان إحدى البواخر على تهريبه من الإسكندرية، وتم تهريبه بالفعل، وسافر إلى إيطاليا حيث درس الهندسة، ونال شهادة الدكتوراه، وأثناء ذلك كان يساعد الذين تم كشف أمرهم من الشبان الفدائيين في مصر على تهريبهم إلى الخارج بجوازات سفر مزورة، وكان يمد الآخرين منهم في مصر بأسلحة من إيطاليا..
لما صدر دستور ٢٣ عاد الدكتور سيد باشا إلى مصر، وعين أستاذًا بكلية الهندسة، ولكنه فصل من وظيفته لدواع سياسية، وبعدها بعام أعلنت الكلية عن حاجتها إلى أساتذة، وأجرى امتحان للمتقدمين.. كان الفائز الأول فيها، ولكنهم رفضوا عودته للكلية، فافتتح مدرسة أهلية باسم "مدرسة النيل"، وفى عام ١٩٤١ عين في وظيفة حكومية بالدرجة الرابعة بعد أن كان في عام ١٩٢٥ بالدرجة الثالثة.
العمــيـــــد..

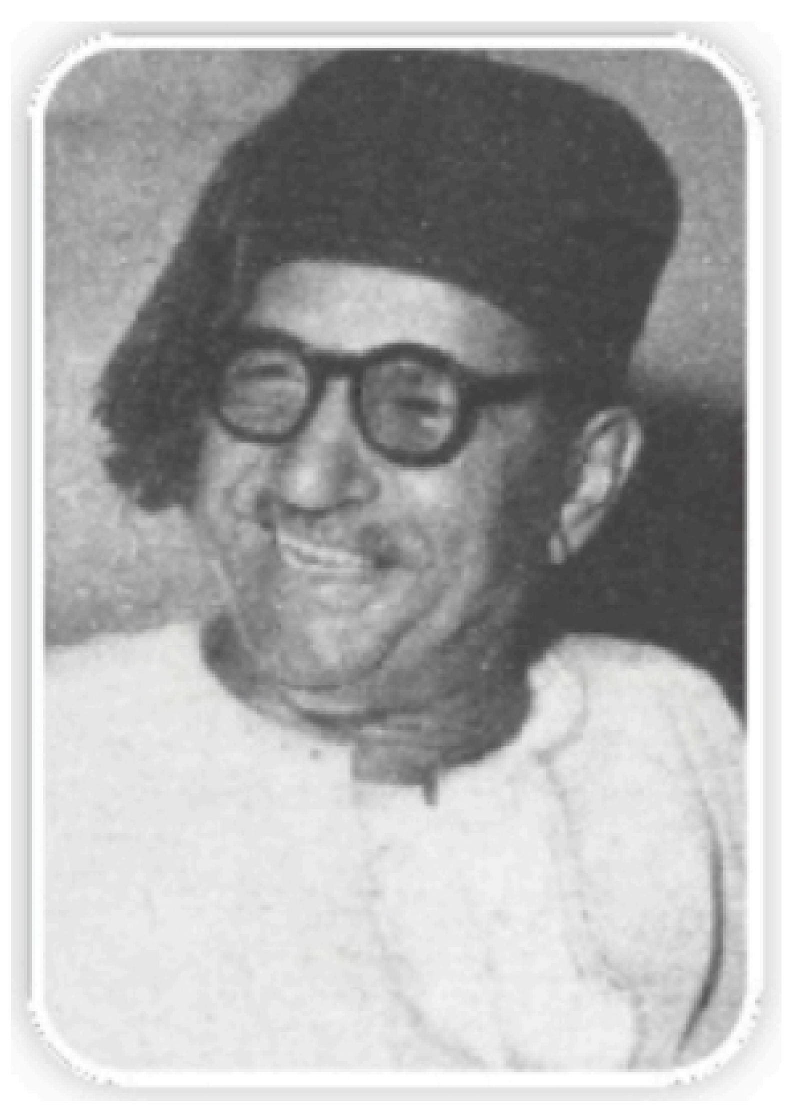


في الإسكندرية ظهر لأول مرة فرع لجمعية "التضامن الأخوي" على يد أحمد رمضان زيان شيخ مجاهدي الإسكندرية، وعاونه على تأسيسها الدكتور ياقوت السهوري ويعقوب صبري الموظف بمدرسة رأس التين، وعبد الله حسن عوض الموظف بالجمارك، ومحمد عوض جبريل مراسل الأهرام وإبراهيم أنيس الموظف بسكة حديد الدلتا، وكان أول ما فعلوه ضم أعضاء جدد، ونشر أهدافهم..

وطريقتهم في ضم عضو جديد للجمعية كانت تتم باصطحابه إلى منطقة مهجورة في كوم الشقافة أو كوم الدكة أو محرم بك معصب العينين، وهناك تكشف له الرؤية، فيقسم على الإخلاص للجمعية، وكفه على مصحف، وقد رصت أمامه بعض الأسلحة والجماجم وأطراف الموتى.. ليروا بأنفسهم شجاعته وتمالك أعصابه، وعدم رهبته من مشاهد الموت.

ساعدت الجمعية ثوار طرابلس عام ١٩١٠، وجمعوا لهم الأموال والعقاقير الطبية والمؤن والذخيرة وأرسلوها إليهم.. كما عاونوا الشيخ الثائر عبد العزيز جاويش والنائب عبد اللطيف الصوفاني في الاتصال بقواد الجيش التركي لتنظيم وسائل المعاونة، وبعد نشوب الحرب العالمية الأولى وفرض الحماية الإنجليزية على مصر.. اعتبرت الجمعية السلطان حسين كامل ومعاونه

حسين رشدي من الخونة، ووضعوا خطة لاغتيالهما، وفى أثناء مرور موكب السلطان حسين بعربته المكشوفة في شارع رأس التين.. ألقى الهلباوي ومحمد شمس الدين قنبلة على الموكب، ولكنها لم تنفجر، وألقى القبض على جميع أفراد الجمعية، وصدر حكم بإعدام الهلباوي وشمس الدين ثم خفف إلى الأشغال الشاقة، ولعدم كفاية الأدلة صدر حكم بالبراءة للجميع، فوضع بعضهم في المعتقلات، ونفوا الآخرين إلى مالطة..
أنفق زيان ثروته "مائة ألف جنيه" على نشاط الجمعية، والمبلغ بمقياس هذا العصر كان جديرًا أن يصبح مالكه من الأعيان الأثرياء، واكتفى في نهاية المطاف بمحل للبقالة يتعايش عليه.. أما ياقوت السهوري فقد هاجر إلى الخارج بعد كشف جمعيتهم ومحاكمتهم، واستكمل دراسته الجامعية وأصبح طبيبًا، وعاد إلى مصر، وأنشأ أمام سجن الحضرة الذى قيد حرية زملائه مستشفى خاص لخدمة الفقراء سماه "مستشفى محمد فريد".. ليصبح رمزًا للحرية أمام ذاكرة الاستبداد.
شيخ العرب أبو سلطان..
عانى الإنجليز في مديرية الشرقية كما عانوا في كل شبر من أرض مصر، ولم تكن لهم لقمة لينة، ولم يهنأوا بحكمها عشرات السنين.. في الشرقية فجرت مخازن أسلحتهم، وفى الشرقية خربت مخازن مياههم، وفى الشرقية عطلت مواصلاتهم، وفى الشرقية عجزوا عن إمداد معسكراتهم، وفى الشرقية ألقيت القنابل على دورياتهم العسكرية..

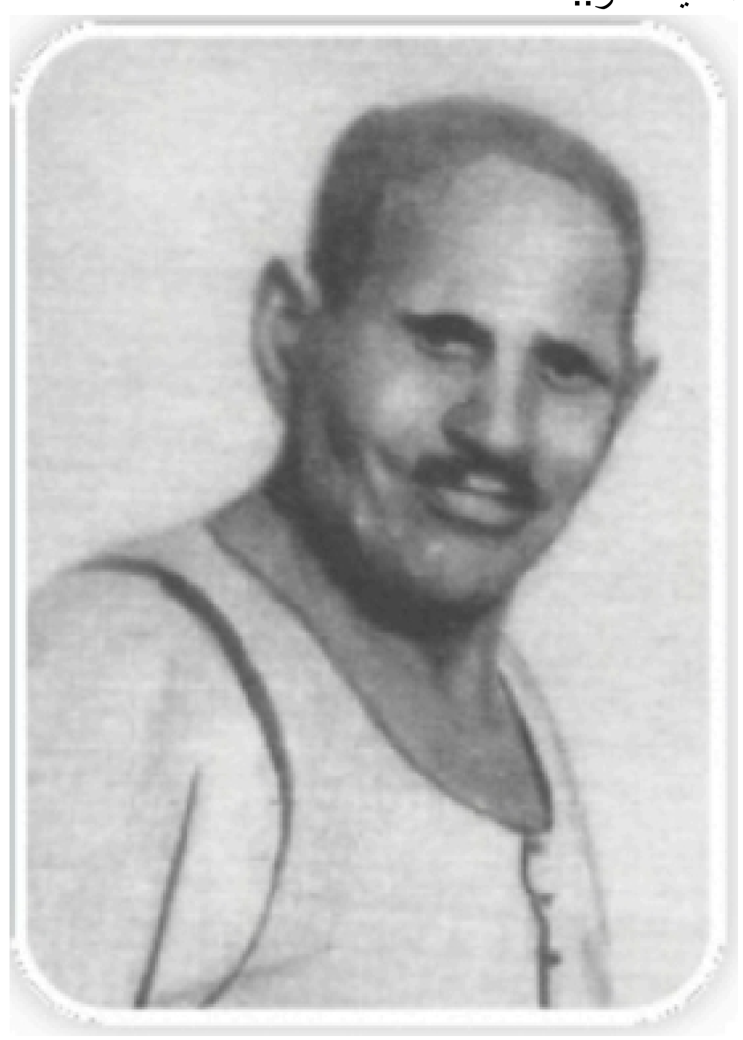


قاد شيخ العرب محمد أبو سلطان ألف رجل، ووزعهم توزيعًا دقيقًا لضرب كل ما يخص الإنجليز في محافظ الشرقية، فشنوا غارات ليلية على المعسكرات، وخزانات المياه، والمواصلات الخاصة التي تحمل الإمدادات الإنجليزية، وحدث أن عجزوا على فك قضبان السكك الحديدة لأن لها مفكات خاصة، فأرسل لإحضارها من عمال الدريسة، وفوجئ الإنجليز في الصباح بخلو الطريق من القضبان.

ومما يذكر عن كتيبة شيخ العرب.. أنه كان فيهم رجل كفيف اسمه عبد الله أبو خالد، وكان يصر على أن يصاحبهم في عملياتهم، ويبكى إذا رفضوه، ويصر عليهم حتى يصطحبوه معهم، ولا يمكننا أن نغفل ذكر مدير الشرقية الوطني محمود شكري باشا الذى ساعد الكتيبة وساندها بكل قوته، فكان ينبههم في أوقات الخطر، ويساعدهم في الاختباء، ويضلل عنهم أعين الإنجليز التي كانت تنتشر في كل مكان.

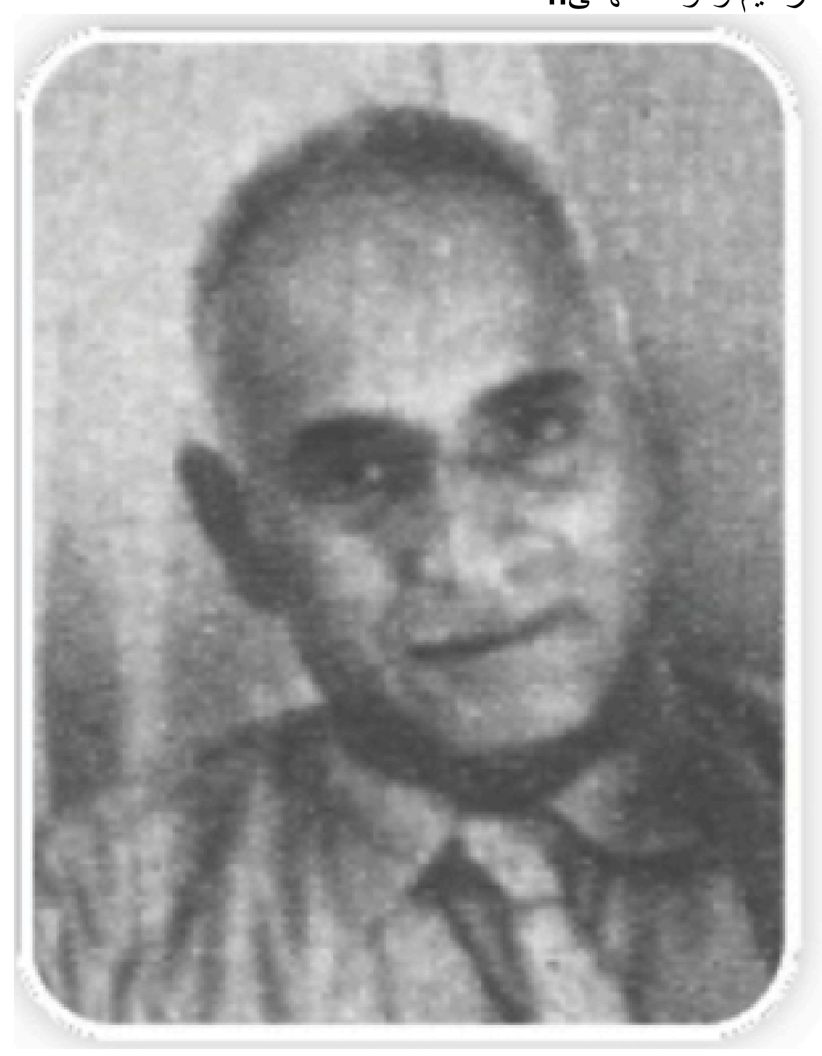
في إحدى الغارات الليلية أصيب أبو سلطان برصاص الإنجليز، وقبض عليه، وقدم للمحاكمة أمام قاضٍ إنجليزي، وفي محاكمة هزلية نطق الحكم ضده بالإعدام.. ثم خفف إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.

في السجن عرض عليه هو وزملاؤه كل أنواع المغريات لقبول الأمر الواقع والاحتلال مقابل العفو والعودة للأهل والشارع.. لكنهم رفضوا على اعتبار أن في الخارج سجنًا إنجليزيًا لا يختلف عن سجونهم، فتحولت المعاملة إلى القسوة والعنف والإهانة، ولكن الفدائيين تحاملوا على أنفسهم، وكان كل واحد منهم يساعد زميله في حمل نصيبه من الأحجار للتخفيف عنه.
الخفيــــــر..



قبل ثورة ١٩١٩ كان "أسعد مشرقي" في ديروط يدير مطعمه الخاص الذى يدر عليه جنيهين يوميًا.. كان هادئًا ويميل إلى العزلة، منتسبًا لحزب الكنبة لا يشارك في الحوارات السياسية.. قامت الثورة.. تغير طبعه، وتواصل مع الطلبة الفدائيين، وانضم إلى الجمعيات السرية، وتولى توزيع المنشورات..
ذات يوم أبلغ الفدائي "أحمد قرشي" زملاءه أن تسعة من الإنجليز على متن القطار القادم من أسيوط، فتربصوا بهم، وعندما جاء القطار فتكوا بثمانية منهم، واختفى التاسع في إحدى العربات، ولما وصل دير مواس أجهز عليه أبناء البلدة.. ثم قامت نجدة حربية من القاهرة إلى أسيوط في باخرة نيلية تحرسها طائرتان، واستغرقت الرحلة يومين كاملين لأن الأهالي هاجموها مرارًا في طريقها من شواطئ النيل، وعسكرت الحملة في نفس المكان الذى أقيم فيه لاحقًا كوبرى معاهدة

٣٦ على ترعة الإبراهيمية بعد توقيع المعاهدة، ونصبت المدافع، وأخذت تحصد أرواح الأهالي، وامتلأت الترعة بجثث مئات الشهداء.
تعرض شباب البلدة للقبض العشوائي، وكان أسعد مشرقي أحد الواحد وتسعين سجينًا من ديروط ودير مواس وديروط الشريف.. لاقوا كل أصناف التعذيب، وقدموا لمحكمة يرأسها الكولونيل دونس، واستمرت المحاكمة من ١٧ مايو إلى ١٩ يونيه، وحكم على بطل حكايتنا بالإعدام ثم خفف إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.
أخلى سبيل المسجونين السياسيين بعد تولي سعد باشا رئاسة الوزراء، ولكن العفو لم يشمل المتهمين في أحداث ديروط، وظلوا في السجن ثمانية عشر عامًا، وأفرج عنهم بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦..
خرج "مشرقي" من السجن ولم يحس بخروجه أحد.. تشرد الأهل بعد التنكيل بهم، وتوفيت الزوجة والأبناء، وعاش وحيدًا مع الذكريات التي اقترب كثيرًا منها عندما عمل خفيرًا لكوبرى المعاهدة، وكان أكثر ما يؤلمه جحود أناس زاملهم في الكفاح، ووصلوا لأعلى المناصب، وتنكروا له ولزملائه.
الزعيم ودولت فهمى..



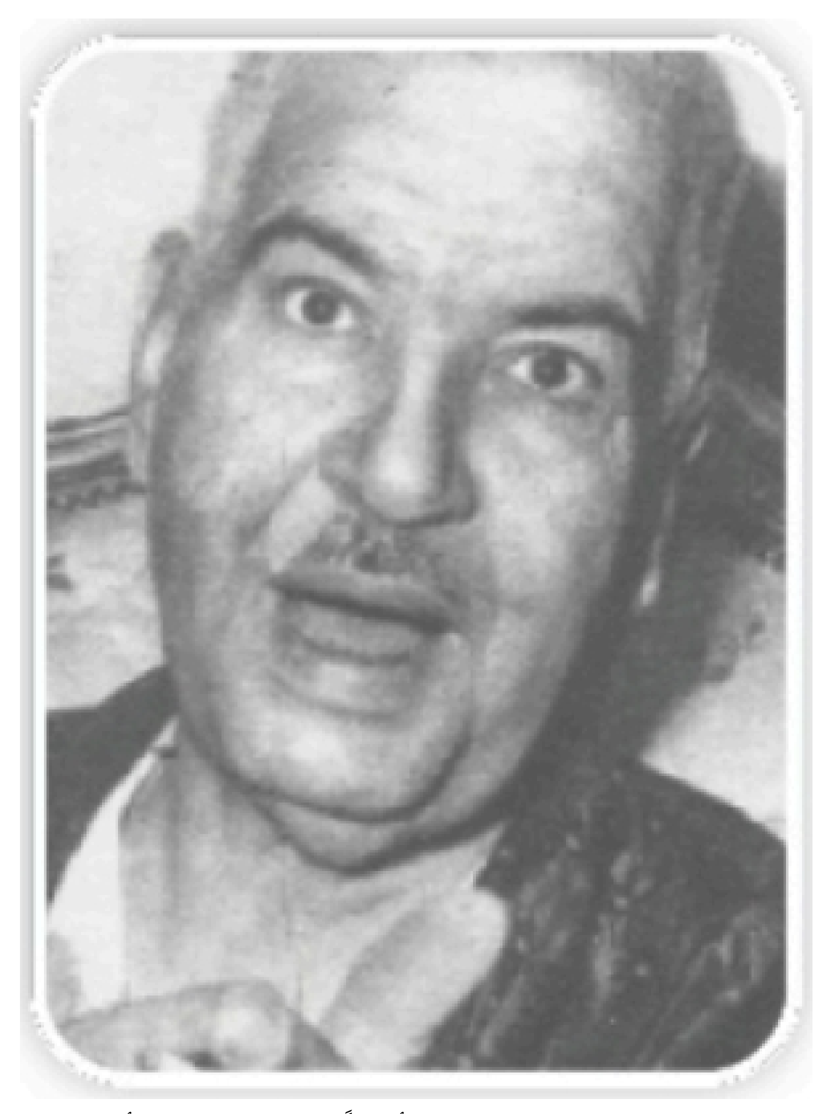
انضم عبد القادر شحاتة إلى جمعية سرية يرأسها شخص يدعى "فهمي"، وهو الاسم الحركي الذى كان يعرف به الفدائي "أحمد عبد الحى كيره".. سأله كيره يومًا عما إن كان لديه الاستعداد للموت في سبيل مصر، فأجاب عبد القادر شحاتة بالإيجاب دون تردد، فعهد إليه أن يلقي قنبلة على "محمد شفيق" وزير الأشغال.. على أن تساعده الجمعية في السفر إلى الخارج هربًا من الملاحقة الأمنية.. ارتدى "شحاتة" ملابس طباخ، وتسلم القنبلة والمسدسات، ووقف في انتظار الوزير ولم يحضر، وفى اليوم الثاني ارتدى ملابس عسكري وانتظر الوزير، ولكنه جاء وبصحبته بعض السيدات، فلم يرض اغتيالهن معه، وفى اليوم الثالث ارتدى ملابس حداد، ومر الوزير وبصحبته سكرتيره حسين سرى، فألقى عليهما القنبلة، وبعد أن سمع صراخهما اختفى..
قبض على عبد القادر شحاتة بعدها بأيام في مدرسة بنات التجأ إليها بعد أن تخلص من القنابل والمسدسات، وأثناء محاكمته ظهرت في المشهد الآنسة دولت فهمي، والتي ارتضت أن تشهد أمام المحكمة أن عبد القادر كان يقيم في منزلها الكائن في شارع كلوت بك طول الأربعة أيام قبل وأثناء وبعد محاولة الاغتيال لتخلص رقبته من حبل المشنقة، وحتى لا يتم إرهابه فيعترف على "كيره"، ولكن المحكمة العسكرية البريطانية قضت بإعدامه، وصرخ عبد القادر في وجه القضاة الإنجليز "ليمت عبد القادر وتحيا مصر".
خفف الحكم عليه إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، وأعفى عنه في فبراير ١٩٢٤ عندما تولى سعد باشا رئاسة الوزراء، ووقف رسل باشا حجر عثر دون عودته لاستكمال تعليمه، فعاد إلى بلدته في ديروط ليختفي بعيدًا عن أعين البوليس السري، ويعمل في الفلاحة، وتوسط له أحمد ماهر باشا عام ١٩٤٥، ووظف في بنك التسليف الزراعي..
أما عن دولت فهمى التي لا يعرفها أحد، فقد أخبرني الصديق مصطفى ابن المناضل الكبير إبراهيم طلعت المحامي، والمقرب من بعض أحفاد أعضاء فرق الموت وكتائب الإعدام.. أن فتاة المنيا دولت فهمي بالفعل لا يعرفها أحد، وأن هذا الاسم لم يكن إلا من وحي خيال مصطفى أمين مؤلف مسلسل عن "دولت فهمي التي لا يعرفها أحد"، والمقتبس من كتابه "مسائل شخصية".. تدور أحداثه عن قصتها مع عبد القادر شحاتة وفرق الموت، وجاء استبدال اسمها الحقيقي باسم حركي بناء على طلب من أسرتها، والمتعارف عليه في قصتها أن أشخاصًا من أهلها اغتالوها محوا للعار الذى جلبته لهم باعترافها زورًا أن عبد القادر شحاتة كان حبيبها، ويقيم في شقتها، لتنقذه من حبل المشنقة، ومما قاله لي صديقي أن أصدقاءه أحفاد الفدائيين أخبروه أنهم لا يعرفون إلا اسمها الأول، والذى سمعوه من أجدادهم، وهو " مريم".
أيا كان اسمها، فقد دخلت التاريخ من أوسع أبوابه، وللأسف لم يعرفها أحد.
بطل الصعيد الأول..



البكباشي محمد كامل مأمور أسيوط وابن بني سويف.. كان الشعلة الأولى التي اندلعت منها نار الثورة في الصعيد عام ١٩١٩.. سلح الثوار ببنادق البوليس، وحرضهم على مهاجمة الإنجليز، وسهل لهم طرق الهجوم والهروب، وحذرهم مع كل خطر، فتم القبض عليه، وأصدرت القيادة البريطانية أوامر مشددة بأن من يساعد أو يعاون أسرة المأمور الذى تجري محاكمته سوف يعاقب بالضبط والمحاكمة، ولكن أبناء أسيوط ضربوا بهذه التعليمات عرض الحائط، وأحاطوا الأسرة برعايتهم، وصدر حكم بإعدامه، وتجريده من رتبته العسكرية، وحرمانه من كل مستحقاته، وشطب اسمه من كل سجلات الحكومة..

أجل تنفيذ الحكم لمساومته من قبل السلطات البريطانية على تخفيف الحكم مقابل اعترافه على أسماء من حركوا جماهير الصعيد في الثورة، وهاجموا الإنجليز.. لكنه رفض الإفصاح عنهم،

فأغروه بالبراءة، وظل على موقفه وقال "لن أساوم على مكاني في الجنة بأي منصب من مناصب الدنيا".. انهالت البرقيات والاحتجاجات من طبقات الشعب المصري على الجهات المختصة تطالب بإعادة النظر في الحكم، وتعنت الإنجليز في حكمهم لإلقاء الرعب في نفوس الشعب، وإخماد روح المقاومة الشعبية.
وصلت أم المأمور إلى أسيوط قادمة من بني سويف، وتمكنت من مقابلة "ماكماهون" رئيس المحكمة العسكرية التي أصدرت الحكم، فقال لها وصلني أن ابنك رسم صورتي على ورقة، وكتب إسمي تحتها ثم أحرقها وهو يقول "سوف أقتل ماكماهون"، ومن أجل ذلك لابد أن يموت هو أو أموت أنا، فقالت له إنها جاءت تسأله على أي الأسس بنى حكمه الشاذ، ولم تلتمس منه تخفيف الحكم.. لأنها لا تعترف بالحكم حتى تطالب تخفيفه.
وفى يوم ١٠ يونيه وقفت سيارة إسعاف بريطانية أمام بيت المأمور، وهبط منها جنديان يحملان جسدًا على نقالة، وعلى رصيف الشارع المجاور للبيت وليس داخله ألقوا بالجثة مضرجة في دمائها، وعادوا إلى السيارة، وانتشر الجنود الإنجليز حول البيت، وأحاطوه وعزلوه وحاصروه.. فزع أطفال البكباشي الثلاثة من مشهد جثمان والدهم الملقى على الأرض، ولم يحتملوا هذا المشهد، واندفعوا يصرخون، وأصبح هذا المشهد يطارد الطفلة الصغيرة التي لم تكن جاوزت التاسعة، وظل مصدر متاعب نفسية تعاني منها حتى سن متقدمة.. اخترق الحصار الإنجليزي المضروب على المنزل "سيد خشبة"، وعرض على الزوجة أن تسمح له بدفن الجثمان في مقابر عائلته بعد أن رفضت السلطات البريطانية أن يشيع الشهيد في جنازة أو ينقل جثمانه إلى مدافن الأسرة، وفى الليل وعلى ضوء المشاعل.. كان خمسة أشخاص يشيعون المأمور.. الزوجة التي تواجه أقسى ما يمكن أن تواجهه زوجة في مثل هذا الموقف، وسيد خشبة، وثلاثة من عمال المدافن، وعادت الزوجة تجمع أطفالها لمغادرة أسيوط، ولكن جنود الاحتلال تدخلوا.. فقد سرى الخبر في أسيوط، وانتشر الجمهور حول المحطة لتوديع الأسرة خلفه، وتدخلت سلطات الاحتلال، وأصرت على عدم سفر الأسرة في قطار النهار، وحددت لسفرها قطار الفجر، كما دفن الأب فجرًا بدون تشييع.. سافرت الأسرة فجرًا بدون وداع.
أستاذ الفدائيين..



لم يعرف تاريخ الحركة الوطنية أستاذًا للفدائيين مثل الأستاذ حسن كامل الشيشيني.. لقد كان أستاذًا في مدرسة التجارة المتوسطة، ثم التجارة العليا، فمدرسة الحقوق العليا، وفوق هذا كله كان أستاذًا للوطنية.. تعلم على يديه مئات من الشبان الوطنيين، وعشرات من الفدائيين، وأصبح هو وأحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي يمثلون المجلس الأعلى للفدائيين في مصر.. اعتقل وسجن أكثر من مرة، ورأى حبل المشنقة يقترب من عنقه، ولكن ذلك لم ينل من حماسه، ولم يؤثر على قيادته للحركة وإمدادها بالمال.

كان الشيشيني بارعًا في ابتكار الوسائل لمساعدة الفدائيين، وكان يذهب إلى طنطا أو الفيوم أو غيرهما من المدن لكى يرسل من هناك حوالات بريدية إلى أسر الشهداء، فتصلهم المعونة المالية دون أن يعرفوا مرسلها، ومما يحكى عنه أنه كان يرسم خريطة مصر على السبورة، ويأخذ في تهيئة أذهان الشباب حب الوطن، ويشرح عليها الأماكن الاستراتيجية، وأماكن تركز المعسكرات الإنجليزية، فإذا ما دخل عليه أحد المفتشين الإنجليز.. جعل من هذه الخريطة مادة للجغرافيا السياسية، وهى في حقيقتها خريطة للجغرافيا وللسياسة، وللفداء.

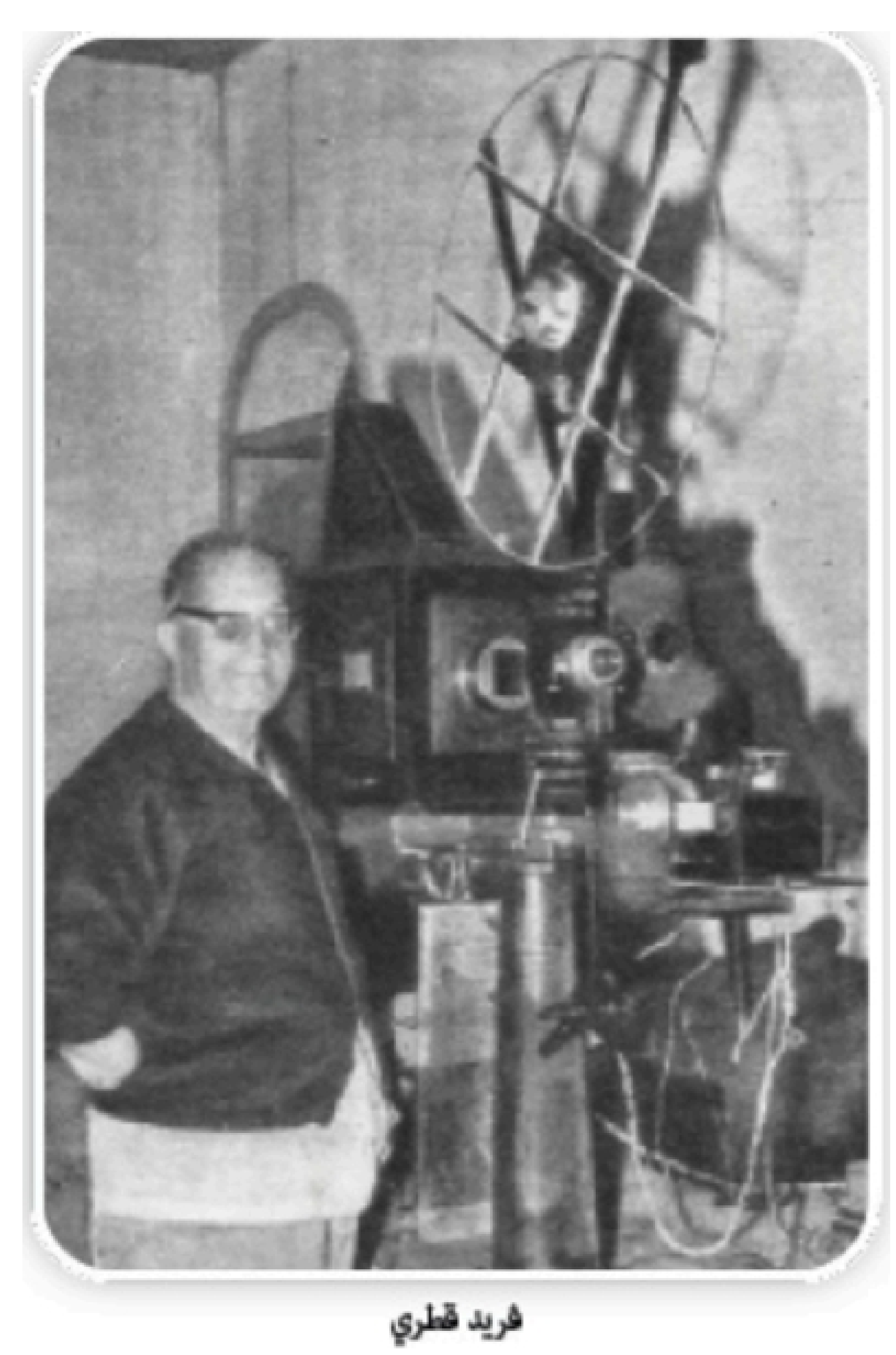
راديو دي فريد

(١)

كان لـحبشي جرجس السبق في إنشاء أول إذاعة مصرية "إذاعة أهلية" عام ١٩٢٧ عندما استعمل ما تبقى من محطة إذاعية من مخلفات الحرب العالمية الأولى وجدها في وكالة البلح كادت أن تصهر ويتحول معدنها إلى أوانٍ منزلية.. كان له السبق في هذا المجال، ولكن لـ فريد قطري السبق في صناعة أول إذاعة مصرية "إذاعة أهلية" عام ١٩٢٩.. إذاعة تحمل شعار Made in Egypt.. صنع في مصر.

(٢)

القانوني.. أحب الكيمياء منذ صغره، ولم يجد في نفسه هوا للقانون ونصوصه، فكان الصدام



فريد قطري

كل ما كان يتمناه الصبى "فريد قطري" أن يعمل ما يحب لا أن يعمل ما يحبه والده المستشار
القانوني.. أحب الكيمياء منذ صغره، ولم يجد في نفسه هوا للقانون ونصوصه، فكان الصدام

الطويل بينه وبين والده، وبين أمنياته ورغبات والده.. دفع ثمن هذا الصدام إتلاف معمله الخاص عدة مرات، وتوبيخه عمال على بطال.. إذا كان الثمن مدفوع مقدمًا، فـ للأمنية الحق أن تتحول إلى إصرار.. أصر الصبى على امنيته، ونبغ فيما يحب، ونال أول وسام في حياته من مدرسته "سانت كاترين" بالإسكندرية، وذلك تقديرًا لنجاحه في صناعة جهاز إرسال واستقبال، وكان هذا حافزا له أن يستمر في الطريق الذى رسمه لنفسه، فأجرى الاختبارات والتجارب في معمله الخاص، وواصل الليل بالنهار، واختلطت عليه الساعات.

(٣)

في إحدى هذه التجارب الكيميائية المرهقة وقع المحظور، وانفجر معمله، وأصيب إصابات بالغة في وجه وذراعيه، وبعد إسعافه السريع نقله والده بين الحياة والموت إلى لندن لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وكانت النتيجة أن كف بصره، وفقد سمعه، وبترت نصف ذراعيه، ولم يزل عمره ثمانية عشر عاما في عام ١٩٢٠.

ظل في لندن يخضع للعمليات الجراحية حتى استرد بصره وجزء من سمعه، فعاد إلى مصر، وعاد إلى هوايته المفضلة، واستمر في طريقه دون أن ينال منه الحزن أو اليأس على ما اصابه، فاستمر في تجاربه حتى استطاع تقوية جهازه الإرسالي، وأجرى على الجهاز الاختبارات اللازمة بمساعدة عدد من أصدقائه، واستمعوا جميعًا إلى أول "بث" من إرسال صنعته يد مصرية.

(٤)

تزوج فريد من صديقة يوغسلافية عام ١٩٢٩، وفى نفس العام شاركته زوجته في إنشاء أول محطة إذاعية "صناعة مصرية" بتكلفة لا تتجاوز ثلاثة جنيهات مصرية، وهى قيمة الخامات التي استخدمها في إنشاء جهاز الإرسال، وأطلق على محطته الإذاعية "راديو دي فريد"، وإذا قارنا بين محتوى محطة حبشي جرجس ومحطة فريد قطري.. نجد أن محطة حبشي بدأت منذ يومها الأول ناطقة باللهجة المصرية وموجهة كلية إلى أبناء الحارة المصرية..

أما محطة فريد في سنواتها الثلاث الأولى منذ عام ١٩٢٩: ١٩٣١ كانت ناطقة باللغات الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والتركية واليونانية، والسبب هو اختلاف البيئة المتواجدة فيها محطة كل منهما، فمحطة حبشي كانت كائنة في شارع الجيش قرب كوبرى القبة في قلب القاهرة حيث الأحياء الشعبية الخالصة.. أما محطة فريد فكانت كائنة في الإسكندرية حيث التنوع في الأعراق، واختلاف الألسن، وتعدد الثقافات.


مع زوجته

لم تستمر سياسة المحطة كثيرًا، فبفضل مكالمة هاتفية من مستمع لـ راديو دي فريد ناشد فيها المحطة أن تكون صوتًا للمصريين، ومتنفسًا لهم.. استجاب فريد قطري لطلب المستمع، وتحولت المحطة إلى محطة مصرية خالصة.. يبدأ بثها من السابعة صباحًا ويمتد إلى الواحدة بعد منتصف الليل، وتذيع الأغاني المصرية، والمنولوجات، والموسيقى الشرقية، فسمع الجمهور صوت السيدة منيرة المهدية والسيدة سيدة حسنين والآنسة أم كلثوم وصالح عبد الحي وغيره.. وهنا يكفي أن نقول أن الظهور الأول لصوت السيدة ليلى مراد كان في هذه المحطة، ومما كانت تذيعه المحطة نشرة الأخبار التي تعطي ملخصًا لما تكتبه الصحافة، وبالإضافة إلى البرامج الأسرية والطبية، والبرامج الدينية، وكانت المحطة تلبي طلبات المستمعين.
من الطرائف التي واجهت محطة "راديو دي فريد" أن عددًا من رجال الدين كانوا معارضين لفكرة تلاوة القرآن الكريم عبر ميكروفونات الإذاعة، وكثيرًا ما كانوا يتظاهرون أمام مقر المحطة معربين عن غضبهم الشديد إذا قرأ أحد المشايخ آيات من القرآن في بث إذاعي، وكان يتعرض هؤلاء المقرئون للضرب، ولم ينج من أيد الغاضبين سوى الشيخ حنفي محمود لأنه كان ضريرًا.. هذا الموقف بتفاصيله تعرض له حبشي جرجس ومحطته الإذاعية في القاهرة.
(٥)
وفى مايو ١٩٣٤ منحت الدولة شركة ماركوني امتياز إنشاء أول محطة إذاعية لاسلكية رسمية، وأنذرت الدولة أصحاب المحطات الأهلية، ومنحتهم عامًا واحدًا مهلة يليها إغلاق محطاتهم، فاضطر فريد قطري إلى قبول عدد من الإعلانات التجارية، وعرضها في محطته بطريقة مبتكرة وجذابة طوال عام لتعويض خسارته.

أنطون وفرانكل

(١)

القاهرة / فبراير ١٩٣٦.. أول عرض سينمائي مصري للرسوم المتحركة..

فيلمان ناطقان باللغة العربية للرسوم المتحركة يفصلهما يومان فقط في تاريخ العرض.. الأول "الشاطر مشمش" للإخوة فرانكل في سينما كوزمو، والثاني "حلم الفلاح" لأنطون سليم في ستديو مصر.. الأول لمتمصرين، والثاني لمصري.

(٢)

هرب فرانكل وزوجته من روسيا بعد تضييق الخناق على اليهود، ومن روسيا إلى أرض الميعاد فلسطين طبقا للمعتقد اليهودي، ولم يمكثا فيها طويلًا وهاجرا إلى مصر.. حيث الفرص الجيدة للأجانب، وإنسانية التعامل مع اليهود، والامتيازات الأجنبية.. أنجب فرانكل في مصر أبناءه الثلاثة "هرشل وديفيد وشلومو"، وعملت الأسرة في مجال زخرفة الموبيليا، وسرعان ما هجروها لقلة أرباحها، وقرروا التجريب في السينما المتحركة بعد شيوع نجاح والت ديزني في مشروعه الفني في هذا المجال.. بدأوا مشروعهم الفني برأس مال أربعمائة جنيه لا غير، وكانت تجربتهم الأولى فيلم عن قرد مدته ثوانٍ لكنه لم يعجب المحيطين بهم، وهنا كان ولابد من تمصير فكرتهم، فاستعانوا بفريق من الرسامين لوضع عشرة آلاف صورة تحكي قصة فكاهية بعنوان "الشاطر مشمش"، ومشمش شخصية كارتونية فيها مزيج هائل من ثلاث شخصيات عالمية "ميكي ماوس وشارلي شابلن وشخصية صاروخان الكاريكاتيرية المصري أفندي"..



كتبت الأهرام على لسان محررها عن هذا المشروع الفني الجديد "تمنينا قبل اليوم أن يهتم المشتغلون بالسينما عندنا بصناعة الرسوم المتحركة، وأذكر أن بعض الشبان اتصلوا بي منذ شهور لكي أشرح لهم طريقة صنع تلك الرسوم، وقد أرشدتهم بما أعلم، ودللتهم إلى الجهات التي يمكن أن تفيدهم أكثر وأن تضع خطواتهم في الطريق العملي، وقد عادوا فقدموا إلى شريطهم الجديد.. لكن صاحبنا فرنكل هذا، عاد أخيرًا وقد حسن شخصيات رسومه المتحركة، ومصرها، وأكملها، وقد عرض على كثيرًا من الصور التي أظهرها في شريطه الأخير، فإذا بالفرق كبير بينها وبين صور الشريط الأول، ويرى القراء موضوع الصور التي رسمها هذا الرسام في أشرطته، والتي يحاول أن يجعلها ناطقة وموسيقية، وأن يجعلها ملونة أيضا.. ونحن نرحب بمجهود هذا الرسام نود أن يهتم رسامونا المصريون بهذا الميدان الجديد فيستقلونه، ويظهرون فيه مواهبهم، ويقدمون لبلادهم نوعًا جديدًا من التسلية يمكنهم أن يصوروا فيه أساطير بلادهم وكثيرًا من الخرافات الشرقية المسلية"

طاف الإخوة فرانكل بمشروعهم الصغير على رجال السينما الأجانب في مصر لعل أحدهم يساهم في تمويل المشروع.. كانت الإجابة التي حصلوا عليها من الجميع: المشروع فاشل.. مفيش فايدة.

"مفيش فايدة" مقولة شعبية دارجة على لسان المصريين تناقلوها بعد أن أطلقها سعد زغلول أثناء التفاوض مع الإنجليز لشعوره بتخاذل النخبة في دعم قضية الاستقلال، وظلت حتى الآن تقال في حالات اليأس من سلوك البعض، وخاصة النخبة والسلطة.

فأنتج الإخوة فرانكل فيلمهم الثاني "مفيش فايدة"، وكان نصيبه من الفشل لا يقل عن نصيب فيلمهم الأول، ومن أسباب فشل أفلامهم قلة الرسوم المستخدمة في الإنتاج حيث يحتاج فيلم الرسوم المتحركة الذي يستغرق عشرين دقيقة عرضًا إلى ثلاثين ألف صورة، والسبب الثاني كان في مضمون أفلامهم وفيه الكثير من علامات الاستفهام حولها، وخاصة فيلمهم الثالث "الدفاع الوطني"، والفيلم يهدف إلى إقحام المصريين في حرب عالمية ليسوا طرفًا فيها إكرامًا للإنجليز.

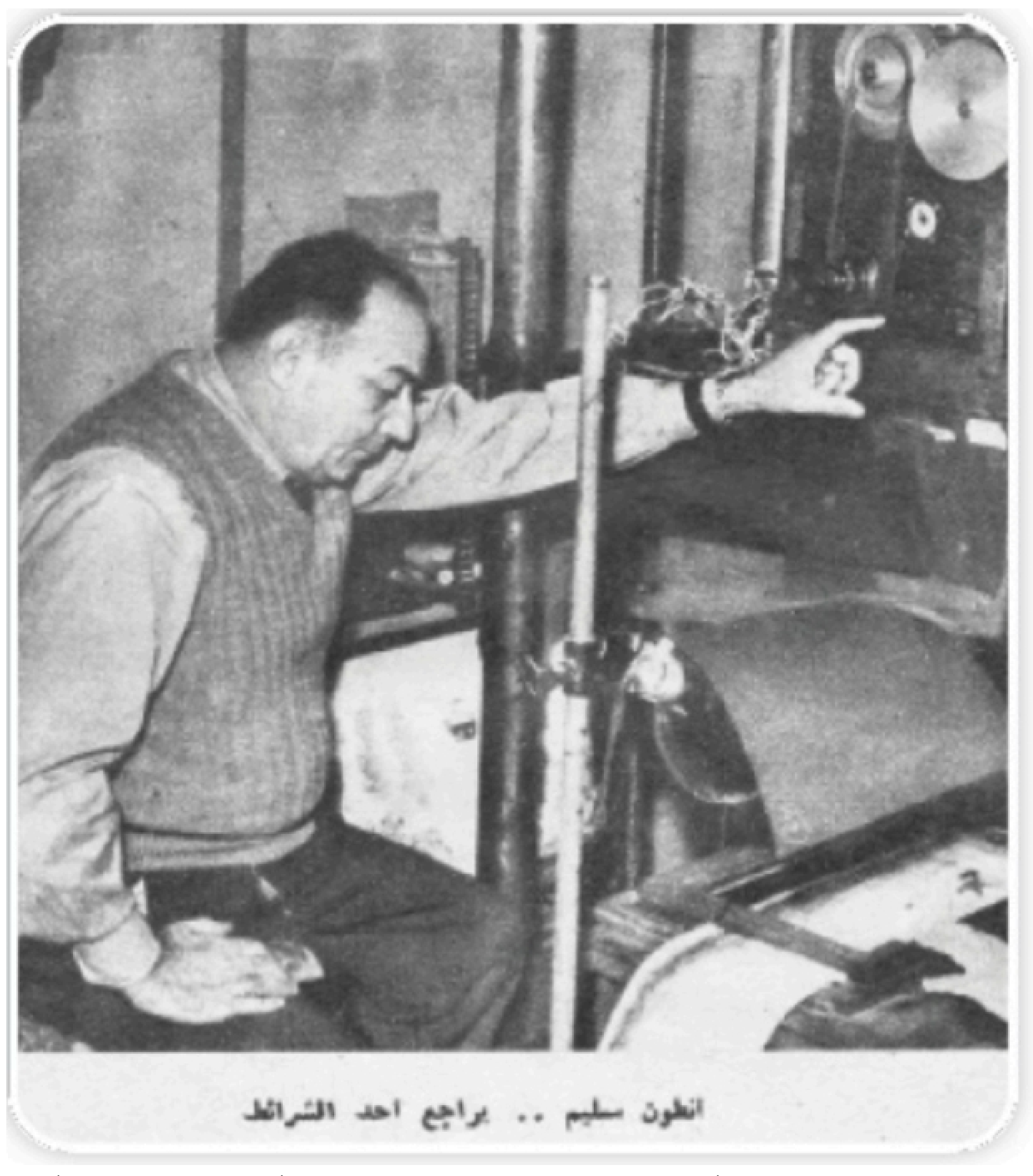
وكان "بالهنا والشفا" آخر الأفلام وآخر المحاولات السينمائية، وفى النهاية تكبدوا خسائر مالية جسيمة، ففقدوا رأس مالهم، وتراكمت عليهم الديون، وانسحبوا من ميدان السينما، وخاضوا تجربة أخرى في الإعلانات باستخدام الرسوم المتحركة، وكانت أشهر إعلاناتهم إعلان "صابون صن لايت" والإعلان الإرشادي" لا تستعمل الكلاكسون بدون داعى"..



هاجروا من مصر عام ١٩٥١ تأثرًا بإلغاء اتفاقية ١٩٣٦، وتمرد الشارع المصري على كل ما هو أجنبي، فلجأوا إلى فرنسا، وهناك استثمروا تجربتهم السابقة في مصر المتمثلة في شخصية "مشمش أفندي" الكارتونية، وحولوها إلى شخصية "ممش" Mimiche، واستبدلوا الطربوش العربي بالبارية الفرنسي ، ولم تكن هذه الشخصية أسعد حظًا من شقيقتها.

(٣)
بما أن المحدد الأساسي لجنسية العمل الفني هو روح العمل نفسه، وليس لغته أو مناظره الطبيعية الخاصة بالبلد.. تظل تجارب الإخوة فرانكل المتمحورة في شخصية مشمش متمصرة كصانعيها، وقابلة للتغيير من بلد لبلد آخر حين يرتحل صناع العمل.. لذلك نجد لزامًا علينا أن نسجل التجربة المصرية الحقيقية في أفلام الرسوم المتحركة.. حيث الروح واللغة والمناظر والمضمون والهدف الوطني.. إنها تجربة رائد الرسوم المتحركة المصرية أنطون سليم.

(٤)
كما فعلها نيوتن بعد سقوط التفاحة أسفل الشجرة.. فعلتها عندما سقطت بين يدي وبالصدفة البحتة مجلة الإذاعة والتليفزيون عدد يناير ١٩٦٤، ووجدت فيها حوارًا مطولًا مع الرائد "أنطون سليم".. نعم "وجدتها.. وجدتها"..
هي الجاذبية التي يُستكمل بها ظهور هذا الفن في مصر قديمًا وحديثًا..



انطون سليم .. يراجع احد الشرائط

"من زمان من سنة ٣٥ على أثر تخرجي في كلية الفنون الجميلة، ولم أكن وحدي المهتم بالأمر.. كان لي زملاء ثلاثة.. أحمد عبد الفتاح، وأحمد سليم.. كانا معي في الكلية، والزميل الثالث اسمه الدكتور عيسى عبد الحميد طبيب في الأنف والأذن والحنجرة، وبدأنا إنتاج أول فيلم مصري بالرسوم المتحركة، وكان اسمه "حلم الفلاح" ثم قمنا بعمل ثلاثة أفلام لشركة نحاس فيلم "دقدق – دقدق بوليس سري – كُتاب الشيخ بركات"..

قابله يومًا الأستاذ حسني نجيب في ستديو مصر..

وقال له: يا بني سيبك من الشغلة دي مش حاتقدر تاكل منها عيش طول حياتك.

ولكنه كان مصممًا على النجاح، فبدأ جولته على أصحاب الشركات، وحاول إقناعهم بعمل إعلانات بالرسوم المتحركة.. طالت جولته، وتعب كثيرًا، وكان نجاحه في إقناع المعلن بالفكرة يعد معجزة.. أخرج إعلان لصابون أُمُو وصابون لوكس.. الإعلانات لفتت أنظار المسئولين في وزارة الثقافة، فرشحوه لمؤسسة دعم السينما لإخراج فيلم "عصام وعزيزة" فيلم أجفا ملون.. هولندا وحدها أخذت من الفيلم عشرين نسخة، لتعرض في مدارسها لأنه فيلم تربوي يظهر فيه حب الإنسان للحيوان.. بعد ذلك عمل للشئون العامة بوزارة الداخلية فيلمًا عن المرور.
لم يجد من المسئولين أي تعاون أو دعم أو تشجيع، فكان كالسيدة التي اضطرتها الظروف أن تغزل برجل حمار.. عمل بأقل الإمكانيات، وفي أصعب الظروف، وأشدها مرارة وحاجة.. قارن أنطون بين ظروف إنتاجه للأفلام، وبين ظروف والت ديزني "والت ديزني فنان ضخم عنده مدينة كاملة لعمل أفلامه، وأنا زي ما أنت شايف يا دوب شقة ٣ غرف.. ديزني عنده ٤٥٠ فنانًا لرسم الأفلام، وأنا عندي ١٦ رسامة ورسامًا، وهو عنده مدينة خاصة لعمل الأفلام السينمائية الطويلة، وعنده دولة بحالها لعمل السيناريوهات فقط، وأنا هنا لغاية دلوقتي مش لاقي الكاتب الذي يمكنه أن يكتب سيناريو الفيلم المتحرك.. كل اللي قدرت أحصل عليه مجرد محاولات".
في ظل هذه الإمكانيات الضعيفة استطاع أنطون سليم أن يكون أول من أدخل الرسوم المتحركة مصر بفيلم "حلم الفلاح"، وكرر التجربة في أفلام كثيرة أهمها فيلم "أنا النيل"..
أنا النيل..
أكثر الأنهار طولًا، فأنا سدس محيط الأرض، وأجري في هذا الطريق منذ القدم
عجز المؤرخون جميعًا أن يعرفوا حقيقة عمري، وأنا حريص أن أخفي عنهم هذه الحقيقة.. كما تفعلون أنتم تمامًا.. مالهم وعمري!!، وأنا رغم آلاف السنين التي مرت بي.. دائمًا متجدد الشباب..
أتعرفون أولًا أين ولدت؟
إن أساطيركم تقول: إني ولدت في الجنة، وذلك لأنني أجيء من السماء.. في شكل أمطار، وما استطاع أحد أن يعرف بالتحديد سر مولدي.
ولكنني أعترف أنني ابن لأعظم بحيرة في إفريقيا تلك التي أسموها "بحيرة فيكتوريا".. كما أن أخي العظيم هو نصفي الحبشي نهر السباط
عرفني القدماء واهب الحياة والخصوبة لأرضهم، فعبدوني إلهًا.
(٥)
فلاش باك لزمن أقدم.. عرف العالم فن الكومكس "القصص المصورة" عام ١٣٠٠ ق.م، وعرف المحاولات الأولى للرسوم المتحركة عام ١٩٠٠، والرسوم المتحركة في الأصل استثمار نجاحات السينما في بدايتها الصامتة لإبراز فن الكومكس الذى يخاطب في أساسه الأطفال بشكل تربوي وتعليمي، وكان وما زال الدارج في هذا الفن - معظمه وليس كله - استخدام رسوم الحيوانات التي يعشقها الطفل، وخلق حالة صراع مصطنع غير دموي ينتصر في نهايته الخير على الشر، وفى محتواه رسالة غير مباشرة إلى الطفل..
"كن محبًا للآخرين وخيرًا فيهم ومتعاونًا معهم"
ولأن مصر جزء هام لا يتجزأ من هذا الفن قديمًا وحديثًا، وهى بضاعتنا التي ردت إلينا.. نسرد البدايات الأولى.
(٦)

ذكر في "معجم الحضارة المصرية" أن المصريين القدماء أول من رصدوا صراع الخير والشر باستخدام دلالات مختلفة وغير مباشرة حين استخدموا رسوم صراع القط والفأر قبل ٣٠٠٠ عام من ابتكار "وليم حنا وجوزيف باربيرا" للشخصيتين الكارتونيتين "توم وجيري"، وأكد الخمسة علماء المهتمون بالمصريات وواضعو الموسوعة التاريخية أنهم عثروا على أوراق بردى وأوستراكا "قطعة مستوية من الفخار" نقش عليها العديد من الرسوم التي توضح هجوم جيش من الفئران على قلعة القطط، وينتصر عليها.



وهو ما أكده بدوره العالم المصري الدكتور عبد الحليم نور الدين أستاذ اللغة المصرية القديمة، والذى أشار إلى أن البرديات تخص الحكي الشعبي غير الرسمي، وفيه ومن خلال التشويق حكايات "جيش الفئران الذى ينتصر على جيش القطط.. القطة التي أصبحت عبدة عند السيدة فأرة.. الفأر على عجلة حربية تقودها كلبتان"، وأن الرسومات في مجملها تستخدم السخرية والتهكم من الحكام بالتقنية الأدبية الإسقاط.. لأن "القط" معبود رسمي عند الفراعنة منذ بداية الأسرة الخامسة وحتى الأسرة الثانية والعشرين، وكان يطلق عليها "الإله باستت"، ووصفوها بـابنة الإله "رع" بعد أن فرض كهنة "رع" أصحاب القوة معبودهم في هليوبوليس أثناء حكم الأسرتين الخامسة والسادسة، وعندما انتصر أمراء طيبة وملوكهم، وأعلنوا أن الإله "آمون" هو الإله الأكبر.

في زمن تعدد الآلهة.. لم يطمس كهنة آمون باقي المعبودات الأخرى، وقالوا إن آمون يمثلها، فظلت الآلهة الأخرى رسمية بما في ذلك القط "باستت"، ولا يمكننا تجاهل وجود الكائن الشمسي القديم "القط العظيم" في كتاب الموتى، والذى كان يحمى الناس، ويمزق الأفعى الشريرة أسفل جذع الشجرة.. أما الفأر فهو المواطن المصري المطحون تحت رغبات الملوك.. اختار المصري القديم في حكيه الشعبي الإسقاط من خلال السخرية والتهكم من القط الذى يشارك الملك الألوهية، فكلاهما ابن لـرع..

يدور الصراع بين الفأر والقط، والذي في حقيقته صراع بين المواطن والملك.. بين الذكي صاحب الحق والمتعنت صاحب السلطة.. بين المفكر الساعي لحريته والمتهور المغرور بعرشه.. ينتصر فيها الحكاء لنفسه، ولبنى وطنه على طغيان ملوكهم من خلال انتصار الفئران، وانهزام القطط.



(٧)

لم تكن فكرة صراع القط والفأر "توم وجيري" وحدها ما تم اقتباسها، فقد اقتبس فنانو الكومكس العديد من نصوص الأدب المصري القديم، وأظهروها في أفلام رسوم متحركة، ومن أشهرها قصة "البحار الغريق"، والتي تحدثنا عن بحار تحطمت سفينته، وحملته الأمواج إلى جزيرة مهجورة بها ثعبان ضخم أكرمه ورعاه حتى

عاد إلى وطنه محملًا بالهدايا، وهذه القصة بها نفس الخط الدرامي لقصص "السندباد البحري.. ألف ليلة وليلة.. روبنسن كروزو".. كما اقتبسوا قصة "تحوتي"، وحولوها إلى "قصة على بابا والأربعين حرامي"، وفى الحكي الشعبي المصري القديم كان تحوتي أحد قادة تحتمس الثالث، وكان يتميز بالدهاء، وابتكار الخطط العسكرية، ومنها عندما أراد الاستيلاء على يافا بأقل الخسائر.. وضع جنوده في "زلع" فخار على ظهور الحمير، ودخل المدينة بالنهار كأحد التجار، وفى المساء خرج جنوده، واستولوا على المدينة بالكامل.

(٨)

في العصر الحديث ورغم ريادة مصر القديمة في فن الكومكس وأدب قصص الأطفال.. انتقلت المبادرة إلى فرنسا حين أصدر الكاتب الفرنسي الكبير شارل بيرو كتابه الأشهر في أدب الأطفال "حكايات ماما وزة" بطريقة الكومكس عام ١٦٩٧، وأعيد طبع الحكايات مئات المرات، وبمعظم لغات العالم، وماما وزة سيدة قروية عجوز تربي في منزلها الريفي الأوز، وتحكي للأطفال الحكايات المختلفة على لسان أوزها، ومن الحكايات المحكية في الكتاب..

ذو اللحية الزرقاء، والجميلة النائمة، والسندريلا في أول ظهور حديث لهذه الحكاية الشيقة، وسندريلا في الأصل حكاية مقتبسة من حكاية فرعونية قديمة بعنوان "رادوبيس"، وجدوها مدونة في برديات "شستر بيتي" المحفوظة بالمتحف البريطاني، ويعود زمنها إلى الأسرة التاسعة عشرة، ورادوبيس في الحكاية القديمة ابنة التاجر الثري "سنوفر" من سيدة مريضة بمرض خطير أهدت ابنتها رادوبيس وهي على فراش الموت حذاء ثمينًا من جلد الماعز، وأكدت لها أن حظها السعيد مرتبط بهذا الحذاء.. تموت الأم، ويتزوج الأب، وينجب من زوجته الجديدة ابنتين أقل جمالًا منها، وتشترك زوجة الأب وابنتيها في سوء معاملة رادوبيس، وفى أحد أعياد الربيع يعلن ولي العهد ابن فرعون عن نيته في اختيار شريكة حياته من الحاضرات.. رفضت زوجة الأب اصطحاب رادوبيس معها إلى الحفل، وبعد انصراف زوجة الأب وابنتيها متجهات إلى الحفل... قررت رادوبيس ارتداء الحذاء المهدى من الأم، والذهاب إلى الحفل، وفى لحظة ارتدائها الحذاء ينقض عليها نسر، ويخطف إحدى فردتي الحذاء ويطير بعيدًا.. يفزع النسر من قرع طبول الحفل، فيلقي بالحذاء بين يدي الأمير الذى يعجب بالحذاء، ويقرر أن يبحث عن صاحبته ليتزوجها.. يزور الأمير المدن والقرى، ويطرق أبواب المنازل والقصور بحثًا عن سعيدة الحظ صاحبة الحذاء التي ستصبح زوجة لولي العهد، وتدعوه زوجة الأب لزيارة منزلها.. لتقيس ابنتيها الحذاء.. لعل الحظ يكون حليفًا لإحداهن، ولكن لم ينطبق الحذاء على الفتاتين، وبالصدفة شاهد الأمير الفتاة رادوبيس، فأخبرته زوجة الأب أنها ابنة البستاني.. لم يبال بكلام زوجة الأب، وذهب إليها يطلب منها أن تقيس الحذاء، فوجده ملائمًا على قدمها، وذهبت رادوبيس وأحضرت الفردة الأخرى للحذاء لتثبت أنها مالكة الحذاء، وانتهت الحكاية بأن تزوجها الأمير.. تناول شارل بيرو القصة، وأعاد صياغتها بشكل حالم وأكثر رومانسية، وأكثر منطقية على عقول أطفال العصر الحديث.

(٩)

"العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ" كتاب للأطفال أصدره محمد عثمان جلال عام ١٨٩٠، والكتاب محاولة منه لإعادة إحياء أدب الأطفال والكومكس في مصر، ولكن المحاولات الأولى غالبًا ما تصاب بالقصور إن لم يكن بالفشل وعدم الإقبال.. حدث هذا عندما ألقى عباس حلمي باشا الأول الكتاب في وجه مؤلفه، واعتبره كلامًا فارغًا، فأنشد محمد عثمان..

راجي المحال عبيط .. وآخر الزمر طيط

والعلم من غير حظ .. لا شك جهل بسيط.

وبدون أي مقدمات أصدرت دار المعارف المصرية عام ١٩١٢ مجموعة كبيرة من الكومكس بعناوين مختلفة مثل "القطيطات العزاز، والبنت الحمراء، وزوزو وفوفو" إعداد محمد حموي بك ومستر جورج روب.

(١٠)

أرخ البعض ابتكار أفلام الرسوم المتحركة لرسام الكاريكاتير الأشهر والتر إلياس الشهير بـ"والت ديزني"، والذى أنتج أفلامًا متعددة للرسوم المتحركة في أوائل عشرينيات القرن الماضي بدأها بـ "سندريلا والقط ذو الحذاء"، وابتكر العديد من الشخصيات الكارتونية أهمها ميكي ماوس وبطوط، ونال ٢٦ جائزة أوسكار، فأطلق عليه النقاد لقب جوكر فن الكارتون..



ولت ديزني مع وفد صحفي مصري ١٩٤٧

ترجم أحمد صالح حوارًا قديمًا مع ديزني ونشره في مجلة آخر ساعة ٣١ ديسمبر٦٦ أهم ما جاء فيها تصريح له "إن الفراعنة هم الذين أوحوا لي بفكرة الرسوم المتحركة.. عندما شاهدت رسمًا عمره ٢٠٠٠ عام يمثل حركة اثنين من المصارعين في رسوم متتالية، وعندما حركت القطعة التي بها الرسم في يدى بسرعة، فإذا بالحركة تبعث في الأشخاص، وإذا بالحياة تدب فيهم".
(١١)
للتاريخ قبل التجربة الكاملة لديزني وروائعه كانت هناك محاولات أولى بعضها لم يكتمل مثل تجربة ستيورت بلانكتون البدائية عام ١٩٠٠ وفيلمه "الرسوم المسحورة"، وتجارب أخرى اكتملت لكنها قصيرة جدًا مثل فيلم "الأوهام" للمخرج الفرنسي إيميل كول، والأوهام أول فيلم رسوم متحركة في تاريخ السينما شهده الجمهور في ١٧ أغسطس ١٩٠٨ بقاعة سينما الجمنازيوم في باريس، ولم يستغرق عرضه على الشاشة أكثر من دقيقة وسبعة عشر ثانية، واحتاج كول لإخراجه إلى ٧٠٠ رسم متتالٍ، ونال عنه الرسام الفرنسي النابليوني "جوقة الشرف"، وأيضا هناك

تجارب أخرى امتزج فيها الفيلم الصامت التقليدي بالرسوم المتحركة مثل فيلمي وينسر زينيك مكاي "نيمو الصغير" عام ١٩١١، و "الديناصور جرتي" ١٩١٤.

من غرز الخازوق؟

انخزق ينخزق، انخزاقًا، فهو منخزق، والمفعول منخزق فيه، وللمزيد راجع التعريف الأول للفظ "الخازوق" في قاموس المعجم الوسيط "خازوق جمع خوازيق (خ ز ق): أعدموه على خازوق عمود.. كان يستعمل قديمًا لإعدام المجرم، وهو مدبب الرأس.. يجلسونه عليه فيدخل في دبره ويخرج من أعلاه"..

تاريخيًا هذا التعريف مرتبط في أذهاننا ارتباطًا لصيقًا بما فعلوه مع سليمان الحلبي بعد اغتياله كليبر، وكان التمهيد الأول لجلاء الفرنسيين عن مصر.. صورة مؤلمة ومحزنة، وغير آدمية، ولا أخفي عليك سرًا أنني تخوفت من العنوان في بادئ الأمر، ولفك الالتباس وجدت لزامًا علي إيضاح التفسير اللغوي للكلمة ثم تجاهله.. نعم تجاهله.. بمعنى تناسى ما كتبته في هذا المفتتح.

فـ الحلبى لن يكون بطل حكايتنا هذه، ولن نسرد في ما فعله ولا في محاكمته، ولا عن الخازوق الفرنسي الداعشي.. تجاوز هذا، ودعنا نهتم بالتعريف الآخر للفظ "الوتد في الأرض مطاع.. خزق: انغرز فيها"..

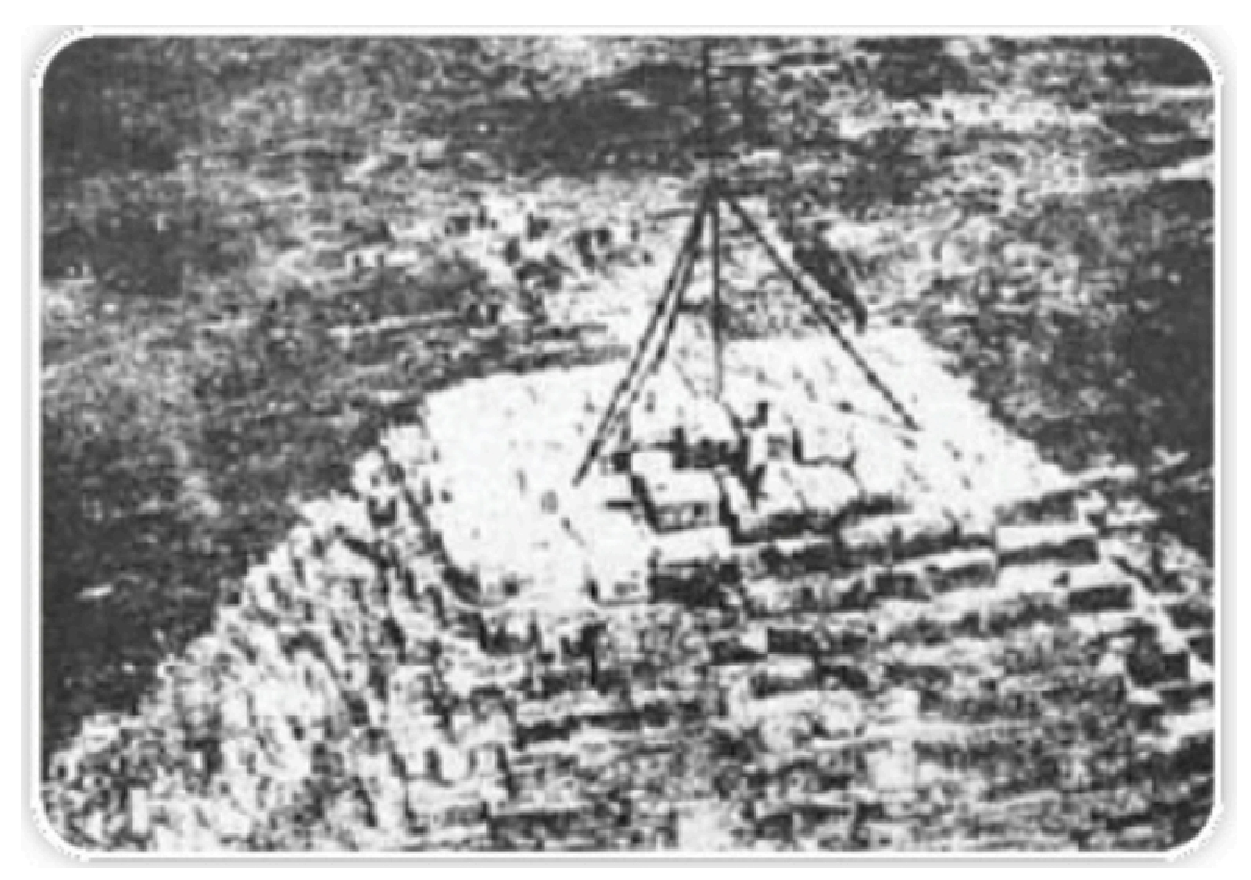
وهو المطلوب..

وأقصد به ذلك الوتد المغروز أعلى الهرم الأكبر..

حكايتنا هذه عن خازوق هرم خوفو، ومن غرز الخازوق؟.

(١)

مع مرور السنين تساقطت أحجار قمة الهرم الأكبر، وتآكلت القطعة الهرمية الخاصة به، وفقد من طوله ٧.٧ متر، فأصبح بلا قمة مدببة، وبلا شكل ثلاثي الأضلاع كباقي الأهرامات، حتى تلك التي رسمناها في كراس الرسم البياني أثناء حصة الرياضيات.. فجأة حل محل الأمتار المفقودة من قمة الهرم خازوقًا شكل لغزًا كبيرًا لدى زوار الأهرامات في السنوات الماضية، وكعادة البعض اجتهدوا وأفتوا في مسألة تاريخ الخازوق وواضعه.



منهم من روج لفكرة أن باني الهرم الأكبر المهندس المصري القديم "حم إيونو" وزير الأعمال البنائية في عهد خوفو هو من وضع هذا الخازوق لتحديد مركز الهرم، والبناء حوله، وهذا القول لا يستقيم مع وجود مصادر تؤكد أن الهرم كان كاملًا بلا خازوق، وكان الطول الأصلي للهرم ١٤٦.٥ متر قبل أن تسقط أحجار القمة، ويصل لطوله الحالي ١٣٨.٨متر..

وموقع تاريخي ممن تؤخذ معلوماته على أنها موثقة ولها مصادر تجعلها يقينًا.. ادعى مسئولوه فيما ادعوا أن "هذا الخازوق صممه الروس في بداية الخمسينيات لأخذ زاوية ميل الأرض الصحيحة لضبط قاعدة إطلاق صواريخهم الفضائية وفقًا للاتجاهات الصحيحة من التعامد من قمة الهرم"، وهناك من أكدوا أن واضع الخازوق هو الحفناوي أفندي، وذلك ليخلد ذكراه كأشهر دليل ومتسلق للهرم الأكبر منذ أوائل الخمسينات.. اختلفت الروايتان في من غرز الخازوق، واتفقتا في فترة غرزه..

مقولة أن الخازوق غرز في فترة الخمسينيات تنفيها حكاية طريفة تخص هذه المقولة نحكيها أولًا قبل حكايتنا..

(٢)

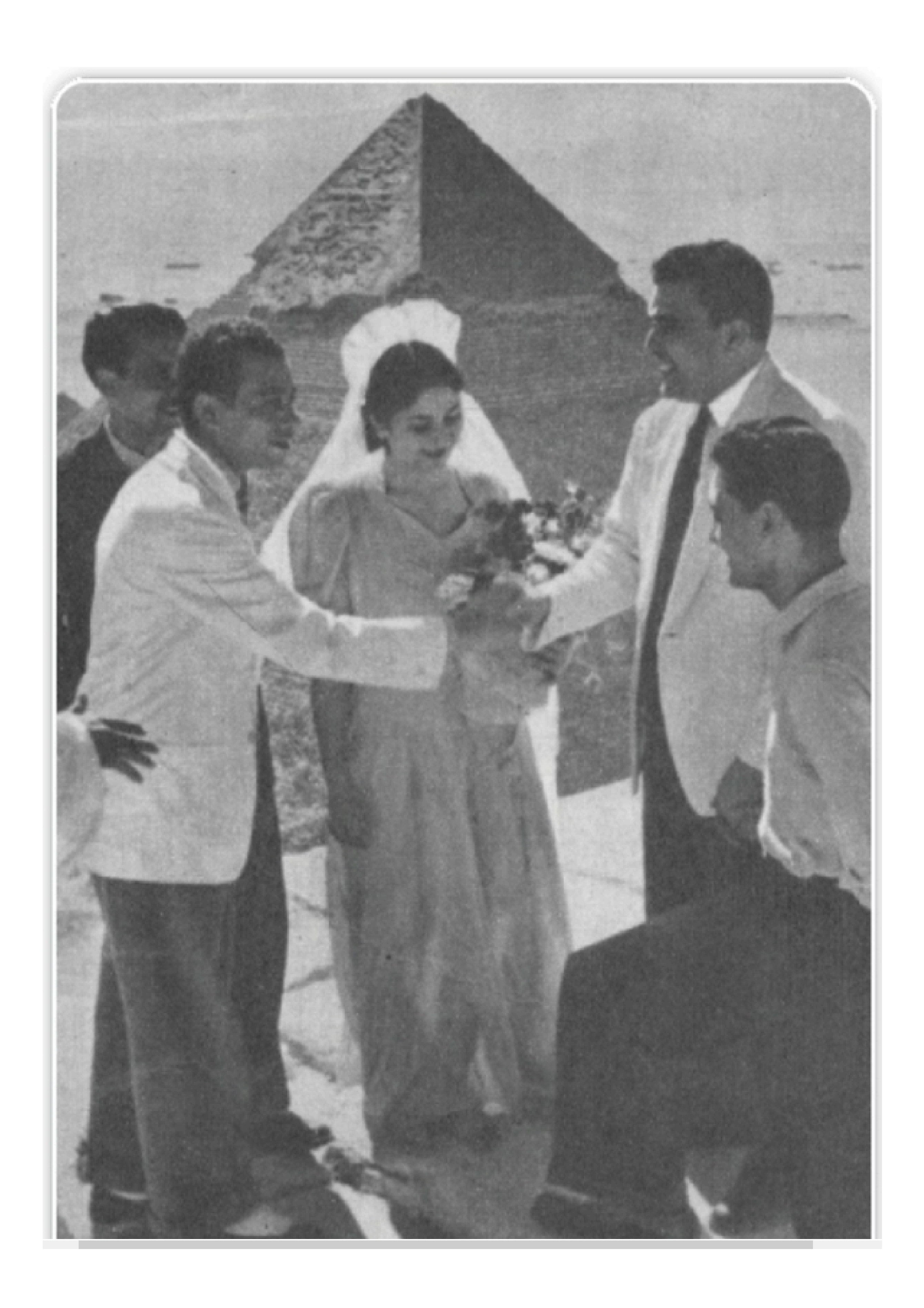
كان محرر مجلة الاثنين والدنيا المجلة الأكثر انتشارًا في مصر فترة الثلاثينات والأربعينات يجلس مع صديقا له وخطيبته، وجاء ذكر المجلة، فقال المحرر أن المجلة ستصدر قريبًا عددًا خاصًا عن التقاليع والابتكارات والطرائف في العالم، وهنا ردت عليه الخطيبة "عندي لك هدية رائعة.. سنقيم حفل عقد القران فوق قمة الهرم، وسنهديك صور الحفلة الفريدة"، ولأن الأمر لم يكن فض مجالس وكلمتين فضفضة.. نشرت بالفعل المجلة في عددها "التقاليع - يناير ١٩٤٧" صور حفل عقد

القران التاريخي فوق قمة الهرم بالصور، ورغم أن الأمر كان شاقًا ومجهدًا على العروسين والمأذون والضيوف.. إلا أنه كان أمرًا طريفًا لذاك العام.
بدأ سيناريو الحدث بوصول سيارة العروس إلى سفح الأهرام، وساعدها العريس على النزول، وكانت مرتدية الفستان الأبيض، وبدأ تقليعة العام الجديد.. عقد قران فريد من نوعه فوق قمة أربعين قرنًا.. أثناء انتظار المأذون الذى عادة آخر من يحضر في حفلات الزفاف المصرية.. قادت ابنة عم العروس جملين عليهما العريس والعروس، وقاموا بنزهة حول الهرم، وأخيرًا أشرق المأذون بطلعته، وبدأت الرحلة الشاقة إلى قمة الهرم، وكان المأذون مترددًا في مطاوعة هذه التقليعة الفريدة، ولم يكن العريس بأحسن حال منه، فجلس بعد الخطوات الأولى للصعود يأخذ نفسه، ويجفف عرقه..



لم تتمالك العروس نفسها من الضحك وهى تقول "دي لسه البداية يا حبيبي"، فتمالك العريس نفسه بعد جملة العروس الساخرة واستمر في الصعود ليثبت أن الدهن في العتاقي، ولم تمر دقائق من سخرية العروس حتى عانت العروس مما عانى منه عريسها، وأغمى عليها من التعب، وعمل الجميع على إفاقتها ، وجلس العريس بجانبها قلقًا عليها ومشجعًا لها، وبعد مرور الوقت استعادت العروس طاقتها، واستكملت مشوار الصعود، وفى منتصف الطريق قرر المأذون أن لا يتقدم خطوة واحدة، وأقسم يمين ثلاثة أنه لم يعان في حياته كلها كمثل هذا العناء، وجلس بجواره الدليل وهون عليه الأمر، وشجعه للاستمرار.. استكملوا جميعًا المشوار خطوة بخطوة، وأخيرًا وصلوا

إلى القمة.. المأذون أولًا على غير عادته في الوصول، ثم العروس، وأخيرًا العريس الذى أغمى عليه بجوار الخازوق، وبعد أن أفاق العريس أبدى ندمه على هذه المغامرة غير المحسوبة..
جاءت اللحظة المنتظرة وبدأ عقد القران العجيب.. يد العريس في يد وكيل العروس تحت المنديل الأبيض، وبعدها باقي المراسم التقليدية، والخازوق فارض نفسه في المشهد، وفى صور عقد القران..



(٣)

ان تكون متميزًا.. أول مشوار أن تكون ناجحًا.

هذا ما كان يؤمن به حفناوي عبد النبي دليل الهرم الأكبر ومتسلقه في أوائل الخمسينيات.. اشتغل حفناوي على نفسه ليتميز عن أقرانه في هذه المهنة الخطرة، واستطاع بالتدريب الشاق أن يكون الأسرع صعودًا وهبوطًا، وحقق رقمًا قياسيًا لم يحققه غيره.. كان يصعد الهرم البالغ طوله ثلاثمائة متر في ست دقائق، ويهبط في دقيقتين، وكان الدليل الوحيد الذى لديه خط سير في الصعود لكل جانب من الجوانب الأربعة.. مما شجع الزوار على الاستعانة به للصعود إلى سفح الهرم، ومن أهم الضيوف الذين صعدوا إلى القمة بمصاحبته وزير خارجية إنجلترا أرنست بيفن، وشاه إيران محمد رضا بهلوي، والملك سعود، والرئيس اليوغسلافى جوزيف تيتو، والرئيس الروسى خروشوف، وإمبراطور إثيوبيا هيلاسلاسى، والأميرة ديانا"..



يا له من شجاع!

في الحفلة التي اقيمت لجلالة الملك سعود في استراحة الهرم، قام احد الاعراب بتسلق الهرم الاكبر، فبلغ قمته وهبط منها في سرعة فائقة، اذ لم يستغرق في الصعود والهبوط أكثر من سبع دقائق، فأبدى جلالة الملك اعجابه بشجاعة هذا الاعرابي قائلا: « يا له من شجاع!.. » ثم منحه مبلغا كبيرا من المال... ويرى في هذه الصورة الرئيس اللواء محمد نجيب يشد على يد الاعرابي الشجاع مهنئا...

كان مصدر ثقة جميع الضيوف، فشجعوه بالهدايا الثمينة والمكافآت المالية، وحدث أن زار الرئيس الأسبق محمد نجيب وبصحبته الملك سعود، واستعرض حفناوي أمامهما مهارته في صعود الهرم، فقال عنه الملك سعود "يا له من شجاع"، وأطلق عليه نجيب لقب "البطل"..
وفى الثمانينات صدر قانون منع تسلق الهرم حفاظًا على حياته بعد كبر سنه.
(٤)
هذا الخازوق لم يصممه الروس في بداية الخمسينات لأخذ زاوية ميل الأرض الصحيحة لضبط قاعدة إطلاق صواريخهم الفضائية وفقا للاتجاهات الصحيحة من التعامد من قمة الهرم، ولم يغرزه حفناوي عبد النبي أشهر من تسلق الهرم منذ الخمسينيات.. الخازوق كان شاهدًا على عرس أقيم بجواره في يناير ١٩٤٧.
(٥)
في عدد فبراير ١٩٦٢ كان مفتتح مجلة الهلال "من الذى وضع الخازوق فوق قمة الهرم؟"، وريبوتاج طويل شيق وثري بدأته المجلة ببرقية أرسلتها لمندوبتها في نيويورك جاء فيه..
"ابحثي عن عبد الخالق مراد في جامعة كولومبيا.. إنه معيد بجامعة الإسكندرية، ويعد بحثًا للدكتوراه.. إن في دفعته زميلًا يدعى أنه حفيد الرجل الذى وضع الخازوق فوق الهرم.. المطلوب التحقيق حول هذا الادعاء"،
وكان رد المندوبة على البرقية بعد أيام..
"قابلت عبد الخالق مراد.. سألته عن قصة زميله الأمريكى الذى يدعى أنه حفيد الرجل الذى وضع الخازوق فوق الهرم، فأكد الرواية..
سألته عن معنى وجود هذا الخازوق فوق الهرم، فقال إنه لا يعنى شيئًا الآن، ولكنه كان يعني أشياء مهمة للمهندس الأمريكي الذى وضع هذا الخازوق.
- مهندس أمريكي؟
- هنرى براوت.. كان ضابطًا في جيش الخديوي إسماعيل لمدة أربع سنوات، وكانت مهمته التي كلفه بها "الجنرال ستون" أن يقدر مساحة الدلتا، وكانت النقطة التي يحسب منها أبعاده هي قمة الهرم الأكبر، وهذا العمود أحد أدواته التي ساعدته على تحديد هذه الأبعاد.
بالصدفة حفيد هذا الرجل أستاذ في جامعة كاليفورنيا، ويزور جامعة كولومبيا الآن.. قابلته، وفوجئت به يقول إن جده كولونيل هنري براوت كان ضابطًا سابقًا في الجيش المصري عام ١٨٧٣".
انتهت البرقية.
(٦)
وتوالت الأحداث، وتعرفت المندوبة بالدكتور "تيم براوت"، وقبلت دعوته لزيارة منزل العائلة في نيوجيرسى، وفى المنزل تعرفت المندوبة على والده "كيرتس
براوت" اخر من تبقى على قيد الحياة من الأبناء الأربعة للكولونيل هنري براوت، والذى كان لا يمل من سرد قصة العمود "الخازوق".. هنري لديه مكتبة ضخمة كلها عن تاريخ مصر، وحملة استكشاف وادى النيل، وأخبر المندوبة التي سعد بزيارتها لأنها من مصر "ريحة الحبايب" أنه تعلم أن يكتب Cairo قبل أن يتعلم كتابة حروف اسمه، وحكى لها الحكاية كاملة مدعومة بعدة مصادر، وهى نسخة من التقرير الذى قدمه الكولونيل هنري براوت عام ١٨٧٧ للجنرال ستون

"اسمه درج كثيرًا في أحداث توفيق وعرابي" من مطبوعات هيئة أركان الحرب المصرية، ونسخ مجلة السكة الحديد التي عمل فيها محررًا عقب عودته من مصر وبها مقالات أشبه بالمذكرات خاصة تلك التي لها علاقة برحلته إلى مصر، ومقال طويل من جريدة النيويورك تايمز عدد ٢٧ يناير ١٩٢٧ فيها إنجازاته، وخدماته التي قدمها للخديوي إسماعيل.. نشر المقال في اليوم التالي لوفاته.

(٧)

اشترك براوت في الحرب الأهلية، وبانتهائها عام ١٨٦٥ ترك الجيش، والتحق بجامعة ميشيجان، وتخرج فيها مهندسًا مدنيًا، وعمل في تخصصه بمساحة السكك الحديد، وسافر إلى مصر عام ١٨٧٣ ليدخل في خدمة ومعية الخديوي إسماعيل بترشيح من القائد العام للجيش الأمريكي الجنرال وليام شيرمان.. بدأ حياته العملية في مصر مهندس برتبة ماجور "رائد"، وخلال أربع سنوات خدمة ترقى إلى رتبة كولونيل "قائمقام / عقيد"، وأصبح حاكمًا للمديرية الاستوائية في الحدود الجنوبية للسودان.



براوت

في مقالاته المنشورة في مجلة السكة الحديد عام ١٩١٢ روى براوت كثيرًا عن بعض نواحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والإدارية في عصر إسماعيل قلما نجدها في مقال واحد..

فعندما وصل إلى القاهرة وجد أن الجنرال ستون دائم الإصرار على عدم مغادرة ضباط المجموعة الأمريكية التي يعمل ضمنها دون سلاح، وكان عندما يركب حصانه يجرى أمامه سائس خاص وهو يصرخ (أوعى ولد.. أوش "حوش" بنت.. أوش جنزير "خنزير".. يا ابن الكلب أوش سآدت "سعادة" البمباشي).. كانت هذه هى وسيلة الطبقة الأرستقراطية في اختراق شوارع القاهرة المزدحمة.. يا ابن الكلب أوش سآدت بمباشي.

عندما بدأ يتفقد أحوال القسم الذى يعمل به في مكتب الهندسة الحربية برئاسة أركان الحرب، وجد خليطا من الأتراك والشراكسة.. معظمهم طاعن في السن، وعملهم الوحيد هو الجلوس وشرب

القهوة وتدخين السجائر، وما من عمل آخر يقومون به، وكان من الصعب إقناعهم بفكرة العمل وأهميته، فكتب تقريرًا إلى الجنرال ستون يخبره بالوضع المذرى للقسم، ولم ينتظر الإجابة.. لأنه في الشرق.

بعد أسابيع من وصوله إلى القاهرة استدعاه الجنرال ستون، وشرح له مشروع مسح منطقة الدلتا بناء على أمر خديوي مصر، وكخطوة هامة كان لابد من مد خطوط وهمية.. خط شمالًا من مركز الهرم الأكبر إلى البحر المتوسط، ثم تقسيم هذا الخط إلى مسافات بخطوط أخرى إلى الشرق والغرب.. لتصبح منطقة الدلتا مقسمة إلى مربعات، وأمره الجنرال ستون أن يقوم باللازم لتنفيذ هذا الأمر الخديوي.

بالفعل ذهب براوت إلى الهرم الأكبر ومعه عدد من العساكر، واستوطن شاليه كان الخديوي بناه خصيصًا للإمبراطورة أوجيني بجوار الهرم مفروشًا بأغلى وأثمن الأثاث، وجلس في الشاليه حتى رحل كل السائحين، وعند الغروب صعد الهرم الأكبر ليستكشفه والبيئة المحيطة به، وظل لعدة أيام يصعد الهرم ويدون بعض النقاط الهامة التي تساعده في مأموريته.. قبل مغادرته الموقع ليتجه شمالاً غرز فوق الهرم الأكبر خازوقًا خشبيًا ارتفاعه حوالى ٣٠ قدمًا، وثبته بالحجارة، وكان هذا العامود هو النقطة التي يراها خلفه وهو متجه شمالًا محددًا مركز الهرم الأكبر.

قبل أن يغادر براوت مصر عائدًا لبلاده بعد أربع سنوات زار الهرم الأكبر لوداعه، وهناك سمع بعض الأساطير التي قيلت حول هذا "الخازوق" من السائحين، ومما سمع منهم أن عمر الخازوق من عمر الهرم نفسه، وأن طوله مكملًا للطول الأصلي للهرم.

هذه حكاية خازوق هرم خوفو..

وكم من خوازيق لا نعرف حكاياتها.

شكر خاص

إلى أمى الغالية..
عبلة كساب
وإلى الأساتذة الأفاضل..
الشاعر/ أحمد البوهى
الروائى/ أحمد مهنى
الروائى/ أحمد مراد
المخرج/ عمرو بيومى
الباحث/ مصطفى شريف
الروائى/ أحمد غالب جاد
الروائى/ عزيز أبو الفتح
الشاعر/ سامح رخا
أمانى على "رحمها الله"
عز الدين فرج
يسرى صادق
وليد النحاس
صلاح شاهين
وألف شكر إلى أصدقاء ومتابعى صفحة تراث مصـــري، وبروفايل أيمن عثمان (تراث مصرى).. سأظل مدينا لكم.